*هذا المقال ما يزال في طور الإنشاء. هذه النسخة ليست للنشر، فهي مُعدّة للتدوير بين نخبة من القراء للإستفادة من ملاحظاتهم و مقترحاتهم. يُرجى عدم توصيل المقال لغير الأشخاص المستهدفين.

ظروف وصول الإسلام إلى شرق الجزيرة و التأويل التجميلي

سأستعمل اسم "شرق الجزيرة" كمعادل لما كان يُسمّى قبل الإسلام "البحرين" و هو اسم جامع لمملكة البحرين و المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية حاليا. و سأتناول الظروف و الملابسات التي أحاطت بعملية انضمام المنطقة إلى الدولة الإسلامية، متتبعا الخيوط التي يحاول كثير من المؤرخين تجاهلها، لتركيب صورة هي الأكثر شمولا. و أود من خلال ذلك مساءلة الصورة النمطية التي دأب الكتاب المعاصرون على تسويقها عن شعب عربي أصيل يقطن هذه البقعة استقبل دعوة محمد تماما بنفس المشاعر التي يحملها مسلمو اليوم. فهل هذه الصورة مستقاة من تحليل النصوص و الشواهد التاريخية، أم أنها من جهة إسقاط لمشاعر الحاضر على الماضي و من جهة أخرى تأويل مصطنع يروم تمجيد الماضي لصناعة هوية يُغني التلذذ باستحضارها في الذهن عن العمل الجاد لإنجاز ما يمكن أن يُفتخر به؟ أحاول في السطور التالية الإجابة على هذه التساؤلات.

الوضع السياسي في شرق الجزيرة عند ظهور الإسلام:

في القرون القليلة التي سبقت ظهور الإسلام نشأت مملكة الحيرة في العراق حيث وقع شرق الجزيرة تحت نفوذها. و قد مرّت مملكة الحيرة بمراحل آلتْ قبيل ظهور الإسلام إلى تشظّيها فتحوّلت إلى مرزبانيات صغيرة منفصلة عن بعضها البعض و كل منها يتبع الشاه الفارسي مباشرة، ثم ابتلعتها الدولة الإسلامية.

كانت البداية عندما نزحت كتلة كبيرة من قبائل الأزد من عمان إلى شرق الجزيرة و تحالفت مع قبائل أخرى في حلف عُرف باسم "تنوخ".

و قد بايعت قبائل حلف تنوخ مالك بن زهير الذي تنازل عن الحكم لزوج ابنته مالك بن فهم، الذي أورث بدوره الحكم إلى ابنه جذيمة، و قيل بل إلى أخيه عمرو ثم أورثه عمرو إلى جذيمة بن مالك بن فهم. و أنوّه هنا إلى أن مالك بن زهير يُسمّى أحيانا مالك بن فهم نسبة إلى جده، مما يؤدي إلى الخلط بينه و بين زوج ابنته.

و لا يُعرف على وجه الدقة متى نزحت قبائل الأزد من عمان إلى شرق الجزيرة، أو متى نزحت قبائل حلف تنوخ من شرق الجزيرة إلى الحيرة، و عن ذلك تقول إيزابيل تورال–نيهوف:

"و رغم عناصر أسطورية كثيرة في القصص المروية عنها، يبدو أن هجرة تنوخ إلى شرق الجزيرة تستند على حقائق و يمكن أن نحدد تاريخها بالإستعانة بالمصادر العتيقة في القرن الثاني الميلادي. فبينما لا يسمّي سترابو و بلينيوس في القرن الأول الميلادي تنوخ في شرق الجزيرة (هما يتحدثان بالخصوص عن مدينة الجرهاء)، يذكر بطليموس في القرن الثاني تنوخ كسكان لمنطقة هي، وفق تقديرات يان فيسمان، تقريبا في المكان الذي تقع فيه اليوم الأحساء، و هي تقابل ما عُرف آنذاك بالبحرين في شرق الجزيرة.

متى زحفت تنوخ نحو الفرات باتجاه بابل لا يُعرف على وجه الدقة" (1)

أما وليام موير (2) فيذكر أن حلف الأزد مع قبائل عربية أخرى قد تم في العام 190 م في شرق الجزيرة، و ما لبثوا أن صعدوا نحو الفرات ليؤسسوا مملكة الحيرة عام 200 م.

و في عام 268 م توفي جذيمة فانتقل الحكم إلى ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، و هكذا ورثت الأسرة اللخمية حكم هذه المملكة لتتحول إلى ما عُرف بدولة المناذرة. و استمر حكم اللخميين حتى العام 605 م تقريبا حين قام كسرى الفرس خسرو الثاني باعتقال و قتل آخر ملوك المناذرة النعمان بن المنذر (2). ثم عيّن كسرى إياس الطائي ملكا على الحيرة و كان ذلك، كما يستشف من كتب الأخباريين العرب، في عام 609 م، غير أنه حسب الطبري لم يكن متفردا في الحكم بل اشترك معه شخص آخر هو النخيرجان، و يزوّدنا ذلك بدليل إضافي على تهلهل سلطة حكومة الحيرة. و لأن النعمان بن المنذر كان قبْل تسليم نفسه إلى كسرى قد أودع ثروته و ذويه عند هانئ الشيباني من آل بكر، فقد أدت مطالبة كسرى بهذه الوديعة إلى مواجهة عسكرية شهيرة في ذي قار بين الفرس مدعمين بحلفاء عرب من جهة و بين بني شيبان من آل بكر مدعمين بحلفاء عرب من جهة أخرى ليكون النصر من نصيب شيبان و حلفائها، و كان ذلك في عام 611 م (2) أو ربما قبل هذا التاريخ بقليل. و في العام 618 م قام كسرى بتولية زاديه بن ماهبيان

بن مهرا بنداد على الحيرة، و بغض النظر عن أصوله العرقية فإنه يمكننا أن نستشف من اسمه الفارسي تهاوي الثقة بين المواطنين العرب في تلك المملكة و بين الإمبراطورية الفارسية. عدا عن ذلك تعطينا المصادر التاريخية العربية صورة عن شرق الجزيرة في تلك الفترة مقطّعا إلى أوصال لكل منها حاكم مختلف قد لا يكون متفردا بالحكم، فهناك المنذر بن ساوى التميمي حاكما على شرق الجزيرة من قبل الفرس، و هناك شخص آخر اسمه الهلال يحكم شرق الجزيرة أيضا، أما هجر، و هو اسم الأحساء قديما، فقد كان عليها مرزبان فارسي اسمه سيبخت، و هناك مرزبان آخر في الزارة و هي الإسم القديم للعوّامية. و عُمان المجاورة التي كانت في السابق مثل شرق الجزيرة خاضعة لحكومة الحيرة أصبحت منفصلة عنها و عن شرق الجزيرة و تتبع الشاه الفارسي مباشرة و يحكمها أخَوان في نفس الوقت هما جيفر و عبد ابنا الجلندي و معهما مرزبان، في نموذج تفككٍ فريد لا بد أن للفرس يداً فيه استهدفت تفتيت المنطقة لتسهيل التحكم فيها، فارتدّ الأمر عليها إذ أن هذا التفتيت أفقد المنطقة وظيفتها الأهم كمصدّ للغزوات العربية القادمة من الشرق، و مهدّ لتوغل الإسلام بسهولة.

الإزدواجية العرقية في شرق الجزيرة عند ظهور الإسلام:

شرق الجزيرة عبارة عن صحارى رملية تتوسطها واحات زراعية. و عندما نجمع المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية و الدراسات الآثارية نتوصل إلى أن شرق الجزيرة عند قدوم الإسلام كان مقسما بين شعبين منفصلين كما يبين الجدول التالي باختصار:

العرق	العرب العدنانية	العجم و هم خليط من أصول متفرقة
الموطن	بدو متمركزين في الصحراء	حضر مقيمين في واحات النخيل و الموانئ البحرية
بداية الإستيطان	بعد عام 270 م	منذ عصور قديمة جدا
اللغة	العربية الكلاسيكية	الآرامية و الفارسية
الديانة	الوثنية منتشرة، و النصرانية في بداية انتشارها، و المجوسية	المجوسية و اليهودية و النصرانية و الوثنية

لقد أشار المؤرخون العرب إلى وجود عرقيتين منفصلتين في شرق الجزيرة عند وصول الإسلام إليها. يقول الحموي في معجم البلدان عن شرق الجزيرة:

"و أما فتحها فإنها كانت في مملكة الفرس و كان بها خلق كثير من عبد القيس و بكر بن وائل و تميم مقيمين في باديتها و كان بها من قبل الفرس المنذر بن ساوى بن عبد الله ابن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم و عبد الله بن زيد هذا هو الأسبذي نسب إلى قرية بهجر و قد ذكر في موضعه. فلما كانت سنة ثمان للهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي حليف بني عبد شمس إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو إلى الجزية و كتب معه إلى المنذر بن ساوي و إلى سيبخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو إلى الجزية فأسلما و أسلم معهما جميع العرب هناك و بعض العجم فأما أهل الأرض من المجوس و اليهود و النصارى فإنهم صالحوا العلاء و كتب بينهم و بينه كتابا"

فهو يستفتح الموضوع بالإشارة إلى القبائل العربية العدنانية عبد القيس و بكر و تميم، ثم يختم بالقول أن "العرب" قد أسلموا جميعا و معهم "بعض العجم"، و هو يقصد بذلك أن القبائل العربية العدنانية قد أسلمت بعمومها، ثم يضيف إليهم جماعة من عرق غير عربي دخلت الإسلام معهم و سماهم العجم. ثم يشير إلى موقف "أهل الأرض" من مجوس و يهود و نصارى حيث أنهم رفضوا الدخول في الإسلام و تمسكوا بدياناتهم. و هو لم يسمهم أهل الأرض عبثا، بل لأنهم الأصل في المنطقة عندما وصلت إليها الهجرات البدوية من تهامة. و لو كانوا عربا لسماهم العرب و لذكر أسماء القبائل التي ينتسبون إليها. أما القبائل العربية العدنانية فهم كانوا، كما يقول الحموي، مقيمين في "باديتها" أي في الصحراء. أما البلاذري في فتوح البلدان فيقول:

"و كانت أرض البحرين من مملكة الفرس، و كان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس و بكر بن وائل و تميم مقيمين في باديتها"

و في لفظ آخر "مقيمين في بدايتها" و ربما كان لفظ "بدايتها" هو تصحيف لـ "باديتها" أو أنه يقصد بداية شرق الجزيرة للقادم من جهة الغرب، أي الصحراء التي بين الأحساء و نجد. و قبيلة عبد القيس كانت، من بين القبائل العربية في شرق الجزيرة، الأقرب للواحات و الأقرب للتمدّن، غير أن اشتغالها بزراعة النخيل لم يكن طبعا راسخا، فظل ذلك في نظر غيرهم عارا يلاحقها حتى العصر الاموي، كما يُفهم من مهاجاة جرير مع الصلتان العبدي. و حكايتها، كما ذكرها البكري في كتاب الأمثال، أن الفرزدق و جرير طلبا من الصلتان العبدي (من عبد القيس) أن يحكم بينهم، و رغم أنه فضّل جرير كشاعر إلا أنه هجا نسبه فرد عليه جرير يهجوه قائلا "متى كان حكم الله في كرب النخل" يعيّره بمهنة الزراعة التي، في نظر العرب، تُفقد صاحبها أهلية الحكم. و قد تمركزت قبيلة عبد القيس في جواثا على أطراف واحة هجر، يقول ابن أعثم في كتاب الفتوح عن حروب الردة:

"و استأمن عامة عبد القيس إلى بكر بن وائل فانهزموا بين أيديهم حتى صاروا إلى حصن لهم بأرض هجر يقال له جواثا فدخلوا، و أقبلت بنو بكر بن وائل و الفرس حتى نزلوا على الحصن فأحدقوا به و حاصروا عبد القيس حصارا شديدا و منعوهم من الطعام، فقال رجل منهم يقال له عبد الله بن حذف العبدي هذه الأبيات و وجه بها إلى أبي بكر رضي الله عنه بالمدينة"

أما الأبيات الشعرية التي كتبها عبد الله بن حذف إلى أبي بكر فكان فيها، كما جاء في الكامل لابن الأثير:

فهل لكم إلى قومٍ كرامٍ قعودٍ في جواثا محصرينا

و في جواثا بنتْ عبد القيس المسجد الذي أقيمت فيه ثاني جمعة في الإسلام. و يبدو لي أن كثيرا من الكتّاب قد فاتتهم أهمية حادثة ربما تكون سبب لجوء عبد القيس إلى مهنة الزراعة. فالمؤرخون عندما تطرقوا إلى الجارود العبدي ذكروا قصة تشير إلى مرور قبيلة عبد القيس بنكبة اقتصادية كبرى. فورد في طبقات ابن سعد:

"و إنما سمي الجارود لأن بلاد عبد القيس أسافت حتى بقيت للجارود شلية , والشلية هي البقية , فبادر بها إلى أخواله من بني هند من بني شيبان فأقام فيهم و إبله فأعدت إبلهم فهلكت , فقال الناس : جردهم بشر فسمي الجارود"

و قد ذكر هذه الرواية أيضا ابن قتيبة في المعارف و ابن عساكر في تاريخ دمشق و الحافظ في الإصابة، و يؤيدها ما سنذكره أدناه من أن الجارود عندما أراد العودة من المدينة إلى شرق الجزيرة لم يكن لديه راحلة يركبها فطلب من محمد أن يرخص له سرقة إبل المسلمين فحذره محمد من ذلك. فإن صحّت حكاية الوباء فإن الجارود كان اسمه "بشر" و لكن إبل عبد القيس أصيبت بداءٍ مُعدٍ فهلكت حتى لم يبق منها إلا قلة قليلة للجارود، فهرب بها لينقذها من العدوى و لجأ إلى أخواله حيث أن أمه من بني هند من بني شيبان من آل بكر. و لكنه نقل العدوى معه إليهم فأعدى إبلهم حتى أجردت، أي هلكت، فقالوا "جردهم بشر" فسمي الجارود. و لك أن تتخيل تأثير تلك الهزة الإقتصادية على قبيلة بدوية، حيث فقدت مصدر اللحوم و الحليب و وسيلة المواصلات، ثم ابتلي زعيمها الجارود بعتب أخواله حيث صار في نظرهم مسئولا عن نقل العدوى إليهم. و حتى لو كان أفرادٌ من عبد القيس قد انخرطوا قبل هذه الحادثة في زراعة النخيل، إلا أننا يمكن أن نتخيل فقدان القبيلة برمتها، بسبب هذه الحادثة، للشعور بالأمان الإقتصادي المعتمد على تربية الإبل، و من ثمّ سعيهم إلى تنويع مصادر رزقهم عبر الإندماج الجزئي في المجتمعات الحضرية التي تمتهن الزراعة، و هم إنما يفعلون ذلك مضطرين دون أن يتخلوا عن بداوتهم و دون أن يمر زمن كافٍ لحدوث عملية تحوّل لا إرادية. و خلاصة القول هي أن ما يقال عن اشتغال عبد القيس بزراعة النخيل لا يعني أن عبد القيس قد تركت البداوة، بل هي احتفظت بمركزها في جواثا على أطراف واحة هجر، و علاوة على ذلك فإن انخراطها في مهنة الزراعة يُحتمل أنه، كما يُفهم من قصة الجارود، قد حدث قبل ظهور الإسلام بمدة وجيزة فلم يمر ما يكفي من الزمن ليكون له تأثير كبير على أنماط التفكير و السلوك البدوية. و ما ألاحظه هو أن بعض الكتّاب المعاصرين يحاولون الإستشهاد باشتغال عبد القيس في زراعة النخيل للتدليل على اندماج العرب البدو مع العجم الحضر، و الحقيقة هي أن التحليل الدقيق لوضع عبد القيس آنذاك يُظهر أنهم لم يتمدنوا بشكل كامل.

و بالنسبة لقبيلة بكر فلم يكن سكناهم في شرق الجزيرة تماما، بل في المنطقة الصحروية الواقعة بين شرق و وسط الجزيرة. و نفهم ذلك من قصة ارتحالهم من تهامة بعد آخر وقعات حرب البسوس، كما ذكرها البكري في معجم ما استعجم:

"و تغْلبُ فى كلّ ذلك [أي في كل الوقعات العسكرية] ظاهرة على بكر، حتى التقوا يوم قضة (...) فكانت الدّبرة لبكر على بنى تغلب فتفرّقوا على ذلك اليوم و تلك الوقعة، و تبدّدوا فى البلاد، أعنى بنى تغلب، و انتشرت بكر بن وائل و عنزة و ضبيعة باليمامة، فيما بينها و بين البحرين، إلى أطراف سواد العراق و مناظرها، و ناحية الأبلّة، إلى هيت و ما والاها من البلاد"

أما عن قبيلة تميم فيصف الطبري في تاريخ الرسل و الملوك حالهم إبان وقعة الصفقة قائلا:

"و عزم كسرى على توجيه الخيل إلى بني تميم، فقيل له: إن بلادهم بلاد سوء، إنما هي مفاوز و صحارى لا يهتدى إلى مسالكها، و ماؤهم من الآبار، و لا يؤمن أن يعوروها فيهلك جندك (...) و كان بنوا تميم يصيرون في ذلك الوقت إلى هجر، للميرة و اللقاط"

و هذه الوقعة حدثت قبل ظهور الإسلام بمدة وجيزة، و قبل معركة ذي قار كما قال الأصفهاني في الأغاني، و بطلها هوذة الحنفي توفي عام 630 م تقريبا كما يُفهم من قصة ورود كتاب محمد إليه التي سنذكرها أدناه. و نفهم من رواية الطبري بأن بني تميم لا يفِدون من الصحراء إلى هجر إلا بعد انتهاء موسم الحصاد فيلتقطون الحبوب و الثمار التي أهملها مزارعوها و يشترون المؤونة. و بعد هذه الوقعة نصّب كسرى رجلا من تميم حاكما على شرق الجزيرة ليتفادى بذلك المزيد من الإشتباكات معهم، و إلا فإن موطن تميم هو الصحراء. و يفسر لنا تنصيبُ رجل تميمي حاكما لشرق الجيرة حضورَ قبيلة تميم في مشهد تلك المنطقة إبان وصول الإسلام إليها. و في ثنايا حكاية الطبري أعلاه قصة جانبية عن حصن المشقر الذي كان يتوسط واحة هجر:

"و كان الذي بنى المشقر رجلاً من أساورة كسرى يقال له: بسك بن ماهبوذ، كان كسرى وجهه لبنائه، فلما ابتدأه قيل له: إن هؤلاء الفعلة لا يقيمون بهذا الموضع إلا أن تكون معهم نساء، فإن فعلت ذلك بهم تم بناؤك، و أقاموا عليه حتى يفرغوا منه؛ فنقل إليهم الفواجر من ناحية السواد و الأهواز، و حملت إليهم روايا الخمر من أرض فارس في البحر، فتناكحوا و توالدوا، فكانوا جل أهل مدينة هجر، و تكلم القوم بالعربية و كانت دعوتهم إلى عبد القيس، فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس: قد علمتم عددنا و عدتنا و عظيم غنائنا، فأدخلونا فيكم و زوجونا، فقالوا: لا، و لكن أقيموا على حالكم فأنتم إخواننا و موالينا، فقال رجلٌ من عبد القيس: يا معشر عبد القيس، أطيعوني و ألحقوهم، فإنه ليس عن مثل هؤلاء مرغب، فقال رجل من القوم: أما تستحي ! أتأمرنا أن ندخل فينا من قد عرفت أوله و أصله ! قال: إنكم إن لم تفعلوا ألحقهم غيركم من العرب، قال: إذن لا نستوحش لهم؛ فتفرق القوم في العرب، و بقيت في عبد القيس منهم بقية فانتموا إليهم، فلم يردوهم عن ذلك"

فبُناة حصن المشقر الذي لعب دورا كمركز للمرتدين في أيام أبي بكر كانوا حسب هذه الرواية عمالا للفرس، و نساؤه كنّ عاهرات جلبن من الأهواز. و مع مرور الزمن تناسلوا و تكلموا باللسان العربي. و بعد الإسلام أُلحقوا بالقبائل العربية، و كانوا يشكلون الأغلبية بين الحضر من سكان هجر.

و قد فصّلتُ في ذلك لأنه موضوع ضروري لتوضيح الحد الفاصل بين شعبي الأحساء ساعة وصول الإسلام: العرب البدو و العجم الحضر. و لم تكن هذه الحالة استثناءا في عموم المنطقة، فإذا اتجهنا جنوبا إلى عمان وجدنا الطبري يصف عربها قائلا:

"بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ص عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ إِلَى جَيْفَرٍ وَ عَمْرِو ابْنَيْ الْجلندي مِنَ الأَزْدِ مُصَدِّقًا، فَخَلَّيَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الصَّدَقَةِ، فَأَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَ رَدَّهَا عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنَ الْمَجُوسِ الَّذِينَ بِهَا، وَ هُمْ كَانُوا أَهْلَ الْبَلَدِ، وَ الْعَرَبُ كَانُوا يَكُونُونَ حولها"

فالطبري يشير بوضوح إلى أن المجوس كانوا هم "أهل البلد" في عمان، أي مقيمين في الحضر، أما العرب كانوا "حولها" أي في باديتها. و إذا اتجهنا شمالا إلى الحيرة وجدنا ابن الأثير يصف عربها في زمن تنوخ في كتاب الكامل في التاريخ قائلا:

"و نزلت تنوخ من الأنبار إلى الحيرة في الأخبية لا يسكنون بيوت المدر"

فابن الأثير يصف حال قبائل حلف تنوخ العربية بأنهم كانوا يقيمون في الخيام و لا يسكنون البيوت الطينية، رغم تواجدهم في قلب أرض العراق. و ليس في ذلك مفاجأة، فقد قدّم ابن خلدون وصفا للعرب عندما يتغلبون على أوطان غيرهم، فقال في الفصل الخامس و العشرين من مقدمته أن العرب إذا تغلبوا على أوطان فإنهم يخربون المباني ليصنعوا من خشب سقوفها أوتادا لخيامهم و من حجارتها أثافي للنار التي يطبخون عليها، و إليك الجزء المهم من النص:

"فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني و يخربونها عليه و يعدونه لذلك و الخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم و يتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه"

فلا عجب أن تتمسك القبائل العربية في شرق الجزيرة ببداوتها لأن هذه هي القاعدة و ليست الإستثناء. فالإزدواجية العرقية لم تكن حكرا على شرق الجزيرة بل تنطبق على ما دناه و ما علاه و السبب هو هجرة البدو إلى هذه المناطق التي كانت قبل هجرتهم مأهولة بشعوب أخرى. و لستُ في هذا المقال بصدد استقصاء الهوية العرقية للشعب الأصلي في شرق الجزيرة، و الذي سماه مؤرخونا "العجم"، غير أن لغتهم الأولى كانت حين ظهر الإسلام، حسب الدراسات الآثارية، الآرامية تليها الفارسية (3). أما القبائل العربية عبد القيس و بكر و تميم، إذا غضضنا النظر عن الفروقات الخاصة باللهجات المحلية، فإنها كانت تتحدث ما يُطلق عليه في الدراسات الحديثة "العربية الكلاسيكية" و هي نفس اللغة المستعملة في مجتمع مكة في زمن ظهور الإسلام.

و لمعرفة الزمن الذي نزحت فيه قبيلة عبد القيس من تهامة إلى شرق الجزيرة فإن أفضل ما يتاح لي حاليا هو قصة الحرب التي استعرت بين بني عبد القيس و بني النمر بن قاسط في تهامة، و إليك ما ذكره عنها البكري في معجم ما استعجم:

"ثم إن بنى عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، أصابت عامرا الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط، و كان عامر منزل ربيعة في انتجاعهم، و صاحب مرباعهم، فقتلوه بغير دم أصابه، فقالت النمر و أولاد قاسط – و فيهم كان البيت يومئذ – لعبد القيس: يا إخوتنا، قتلتم صاحبنا، و انتهكتم حرمتنا، فإما أنصفتمونا و أعطيتمونا بطائلتنا، أو ناجزناكم فمشت السفراء بينهم، فاصطلحوا على أن تحتمل عبد القيس دية الرئيس، وهى عشر ديات، فصار من ذلك على بنى عامر خمس مئة بعير، و على بقية عبد القيس خمس مئة، و أعطوهم رهنا بالدية، خمسة نفر من بنى عامر، و أربعة من أبناء عبد القيس، فيهم امرأة من بنى غنم بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، فأدت بنو عامر الخمس مئة، و افتكوا رهنهم، و تراخى سائر ولد عبد القيس في افتكاك رهنهم، فعدت عليهم النمر، فقتلتهم، و خلوا سبيل المرأة، فجمعت لهم عبد القيس، و قالوا لهم: اعتديتم يا قومنا: أخذتم الاموال، و قتلتم الانفس: فهذه أول حرب وقعت بين بنى ربيعة، فاقتتلوا قتالا شديدا، فكان الفناء و الهلاك في النمر، و خرجت الرياسة عنهم، فصارت في بنى يشكر. فتقرقت ربيعة في تلك الحرب و تمايزت، فارتحلت عبد القيس و شن بن أفصى و من معهم، و بعثوا الرواد مرتادين، فاختاروا البحرين و هجر، و ضاموا من بها من إياد و الأزد، و شدوا خيلهم بكرانيف النخل، فقالت إياد: أترضون أن توثق عبد القيس خيلها بنخلكم ؟ فقال قائل: عرف النخل أهله، فذهبت مثلا. و أجلت عبد القيس إيادا عن تلك البلاد، فساروا نحو العراق "

و نلاحظ من القصة أعلاه أن عبارة "عرف النخل أهله" التي يستشهد بها البعض كدليل على علاقة عبد القيس بالنخيل قد قيلت في الواقع للتعبير عن عملية الإحتلال، و لا تثبت امتهانهم زراعة النخيل كما يُتصور، لأن معنى العبارة هو على ما يبدو "وجد النخل مُلّاكه الجدد". فسيطرتهم على الأراضي الزراعية كمُلّاك جدد لا يعني الإشتغال المباشر فيها، و حتى لو اشتغل بعض أفرادهم فيها فلا يعني ذلك تركهم لمركزهم جواثا على أطراف واحة هجر. و بعد هذه الحرب قاد عمرو بن الجعيد قبيلة عبد القيس من تهامة إلى شرق الجزيرة، كما جاء في جمهرة أنساب العرب لابن حزم. فإذا استطعنا أن نتوصل إلى تاريخ تقريبي لميلاد عمرو بن الجعيد لأمكننا تحديد الزمن الذي هاجرت فيه عبد القيس من تهامة إلى شرق الجزيرة. و بدايةً سوف أفترض أن الجارود، أحد أسياد عبد القيس، الذي وفد على محمد عام 630 م كان ميلاده في عام 580 م على أساس افتراض أن عمره كان عند الوفادة 50 عاما. بعدها سأفترض أن متوسط الجيل الواحد يتراوح بين 35 و 40 عاما، ثم سأقارن بين نسب الجارود و نسب عمرو بن الجعيد لأصل إلى التاريخ التقريبي للعام الذي ولد فيه عمرو بن الجعيد، كما يبين الجدول التالي:

تاريخ الميلاد التقريبي على فرض متوسط الجيل 40 عاما	تاريخ الميلاد التقريبي على فرض متوسط الجيل 35 عاما	نسب الجارود	نسب عمرو بن الجعيد
580 م	580 م	الجارود (بشر)	
540 م	545 م	حنش	
500 م	510 م	المعلّى (الحارث)	
460 م	475 م	يزيد	
420 م	440 م	حارثة	
380 م	405 م	معاوية	
340 م	370 م	ثعلبة	
300 م	335 م	جذيمة	
260 م	300 م	عوف	
220 م	265 م	بكر	عمرو
		أنمار	الجعيد
		عمرو	صبرة
		وديعة	الديل
		لكيز	شن
		أفصى	أفصى
		عبد القيس	عبد القيس

و قد افترضتُ لغرض التسهيل أن عمرو بن الجعيد مولود في نفس عام ولادة بكر جد الجارود، لأنهما يلتقيان في جيل واحد، و هكذا توصلتُ إلى أن عمرو بن الجعيد الذي نزح بقبيلة عبد القيس من تهامة إلى شرق الجزيرة مولود في تاريخ يتراوح بين عامي 220–265 م. و لو افترضنا أن عمره عند النزوح كان 50 عاما، باعتباره رئيس قومه، يكون النزوح قد حدث في تاريخ يتراوح بين عامي 270–315 م. و

قد نقلتُ نسب الجارود من أسد الغابة لابن الأثير نقلا عن الكلبي، و نسب عمرو بن الجعيد من جمهرة أنساب العرب لابن حزم. و أود أن أشير هنا إلى أن عبد القيس بعد وصولها إلى شرق الجزيرة قامت بإجلاء قبائل الأزد و إياد، و هي من قبائل حلف تنوخ العربية، فلم يبق منهم إلا أعداد قليلة جدا، و قصة إجلائهم مذكورة أعلاه. و يبدو أن عبد القيس استفادت من تحول مملكة الحيرة من دولة تنوخ إلى دولة اللخميين عام 268 م حيث أن ذلك سهّل عليهم طرد القبائل التنوخية دون مواجهة ردة فعل انتقامية من الحكومة المركزية في الحيرة.

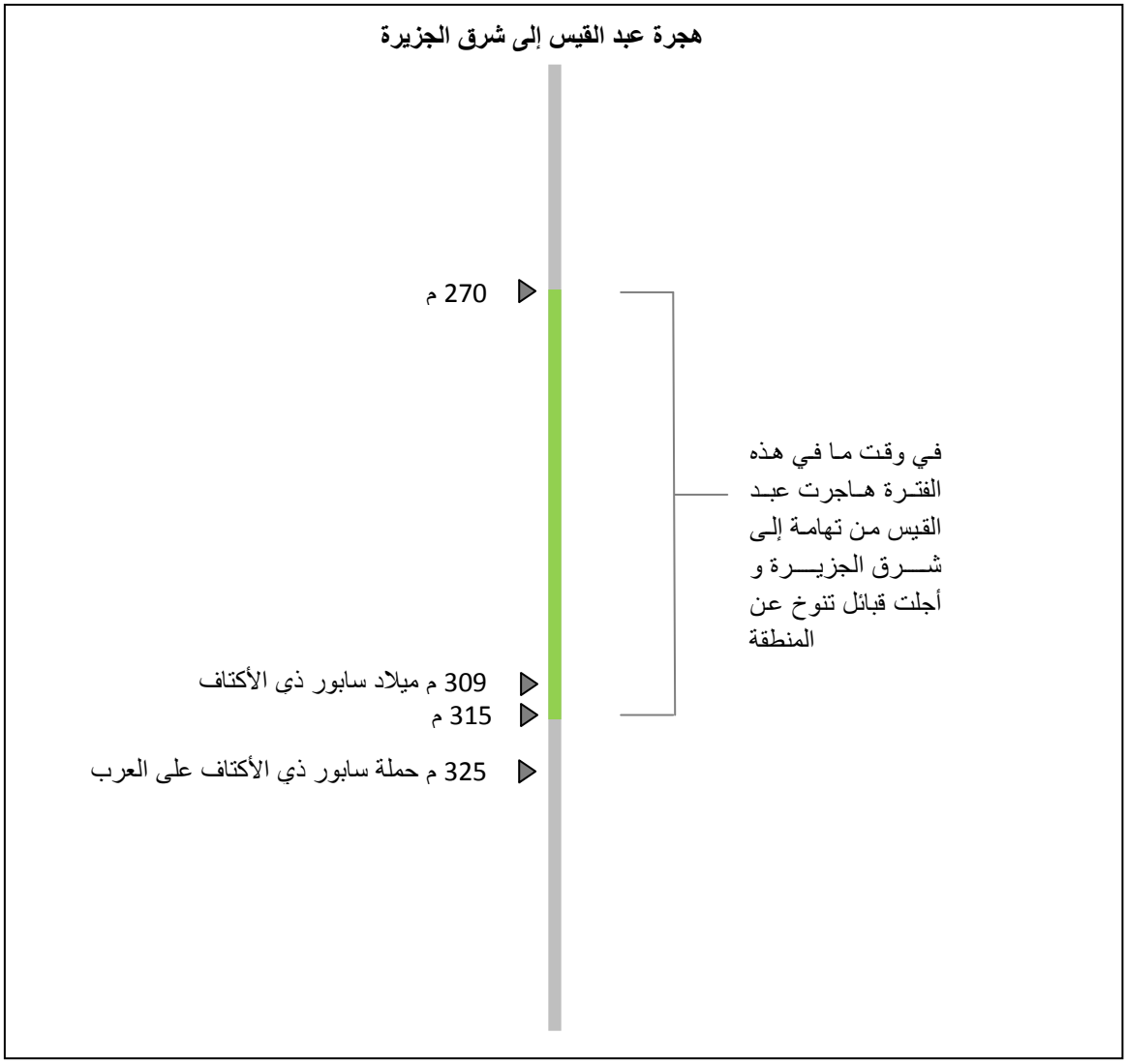

و في عام 309 م وُلد الشاه الفارسي سابور ذو الأكتاف الذي تولى الملك و هو في رحم أمّه (4)، حيث ذكر قصته الطبري في تاريخه، و ذكر أن صغر عمره شجع بدو العرب في شرق الجزيرة، عبد القيس و بكر و تميم، على احتلال الساحل الفارسي غرب الخليج، فلما بلغ عمر سابور 16 عاما انتقم منهم انتقاما رهيبا سُمّي على إثره ذا الأكتاف. و إليك القصة مختصرة كما ذكرها الطبري:

"ثم ملك هرمز (...) ثم هلك (...) و قد قَالَ بعضهم : إن هرمز كان أوصى بالمُلك لذلك الحمل في بطن أمه ، و أن تلك المرأة ولدت سابور ذا الأكتاف (...) ثم وُلد سابور ذو الأكتاف (...) مملكا بوصية أبيه هرمز له بالملك ، (...) و شاع في أطراف مملكة الفرس ، أنه كان لا ملك لهم , و أن أهلها إنما يتلومون صبيا في المهد ، لا يدرون ما هو كائن من أمره ، فطمعت في مملكتهم الترك و الروم ، و كانت بلاد العرب أدنى البلاد إلى فارس ، و كانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معايشهم و بلادهم , لسوء حالهم و شظف عيشهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر , من ناحية بلاد عبد القيس ، و البحرين ، و كاظمة , حتى أناخوا على أيرانشهر وسواحل أردشير خرة و أسياف فارس ، و غلبوا أهلها على مواشيهم ، و حروثهم ، و معايشهم ، و أكثروا الفساد في تلك البلاد , فمكثوا على ذلك من أمرهم حينا لا يغزوهم أحد من الفرس ، لعقدهم تاج الملك على طفل من الأطفال ، و قلة هيبة الناس له ، حتى تحرك سابور و ترعرع ، (...) , حتى إذا تمت له ست عشرة سنة ، و أطاق حمل السلاح و ركوب الخيل , و اشتد عظمه , جمع إليه رؤساء أصحابه و أجناده (...) ، ثم سار بهم , فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب , و هم غارون , و قتل منهم أبرح القتل , و أسر أعنف الأسر , و هرب بقيتهم. ثم قطع البحر في أصحابة , فورد الخط , و استقرى بلاد البحرين يقتل أهلها و لا يقبل فداء , و لا يعرج على غنيمة ، ثم مضى على وجهه , فورد هجر و بها ناس من أعراب تميم و بكر ابن وائل و عبد القيس فأفشي فيهم القتل , و سفك فيهم من الدماء سفكا سالت كسيل المطر , حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه منه غار في جبل و لا جزيرة في بحر. ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها , إلا من هرب منهم فلحق بالرمال. (...) و إنه أسكن من بني تغلب من البحرين دارين , واسمهما هيج و الخط , و من كان من عبد القيس , و طوائف من بني تميم هجر , و من كان من بكر بن وائل كرمان ، و هم الذين يدعون بكر أبان و من كان منهم من بني حنظلة بالرملية من بلاد الأهواز"

و لاحظ أن الطبري وصف القبائل العربية العدنانية، عبد القيس و بكر و تميم، المتواجدة في هجر آنذاك بأنهم "أعراب"، و لم يقل "عرب"، و هو تأكيد على بداوتهم رغم تواجدهم في أو في محيط منطقة حضرية. و فرّق الطبري بين هجر و بلاد عبد القيس حيث يبدو أن الأخيرة كانت عبارة عن مواقع صحراوية متفرقة، و قد أباد سابور ذو الأكتاف ساكنيها سِوى من فرّ منهم و ترك تلك المواقع، ثم حاول توطين من بقي من القبائل العدنانية في المناطق الحضرية كما فصّل في ذلك الطبري. و قد ذكر الطبري أن سبب غزوهم للساحل الفارسي هو سوء وضعهم الإقتصادي، و هذا يتفق مع قصة ارتحالهم من تهامة و وصولهم إلى شرق الجزيرة في وقت ما بين عامي 270–315 م، أي في الفترة التي تسبق أو تحايث طفولة سابور ذي الأكتاف. و لو أنني عندما قدّرتُ تاريخ نزوح عبد القيس إلى شرق الجزيرة افترضتُ أن متوسط الجيل الواحد هو 30 عاما لتوصلتُ إلى أن نزوحهم كان في عام 360 م. و هذه النتيجة تتعارض مع قصة حملة سابور ذي الأكتاف عليهم في عام 325 م، لذلك استبعدتُ هذا التقدير.

أما بكر فقد نزحت إلى شرق الجزيرة على موجتين. فالموجة الأولى قديمة و تاريخها غير معروف فهي سبقت حملة سابور على العرب، كما ذكر الطبري أعلاه، غير أن التاريخ يذكر لنا أن عبد القيس عندما

نزحت إلى شرق الجزيرة لم تصطدم ببكر بل فقط بقبائل تنوخ. و على هذا الأساس يمكننا أن نقول أن الموجة الأولى من هجرة بكر كانت بعد هجرة عبد القيس و قبل حملة سابور، و يمكن أن نقدّر وقوعها بين 280–315 م. و قد أجلاهم سابور عن شرق الجزيرة و وطنهم في كرمان بإيران كما ذكر الطبري، و يحُتمل أن ذلك قد قوّض وجودهم الأول في شرق الجزيرة. أما موجة الهجرة الثانية فقد ذكرها البكري في معجم ما استعجم في نهاية سرده للوقائع العسكرية لحرب البسوس بين تغلب و بكر، حيث هاجرت بكر إلى شرق الجزيرة بعد الوقعة الأخيرة التي سميّت يوم قضة، و هذا نص ما ذكره البكري:

"و تغْلبُ فى كلّ ذلك [أي في كل الوقعات العسكرية] ظاهرة على بكر، حتى التقوا يوم قضة (...) فكانت الدّبرة لبكر على بنى تغلب فتفرّقوا على ذلك اليوم و تلك الوقعة، و تبدّدوا فى البلاد، أعنى بنى تغلب، و انتشرت بكر بن وائل و عنزة و ضبيعة باليمامة، فيما بينها و بين البحرين، إلى أطراف سواد العراق و مناظرها، و ناحية الأبلّة، إلى هيت و ما والاها من البلاد"

و يذكر الأب لويس شيخو في كتابه شعراء النصرانية قبل الإسلام أن الشاعر الفند الزماني المتوفى عام 530 م شارك في يوم قضة، و كان شيخا كبيرا عمره آنذاك قريبا من مائة سنة، لذا يمكننا أن نخمن بسهولة أنه لم يعش طويلا بعد يوم قضة، و يكون يوم قضة قد حدث في العام 530 م أو قبله بسنوات ليست كثيرة. فلو صحت هذه الروايات فإن الموجة الثانية من هجرة بكر إلى شرق الجزيرة تكون قد حصلت تقريبا بين 515–530 م.

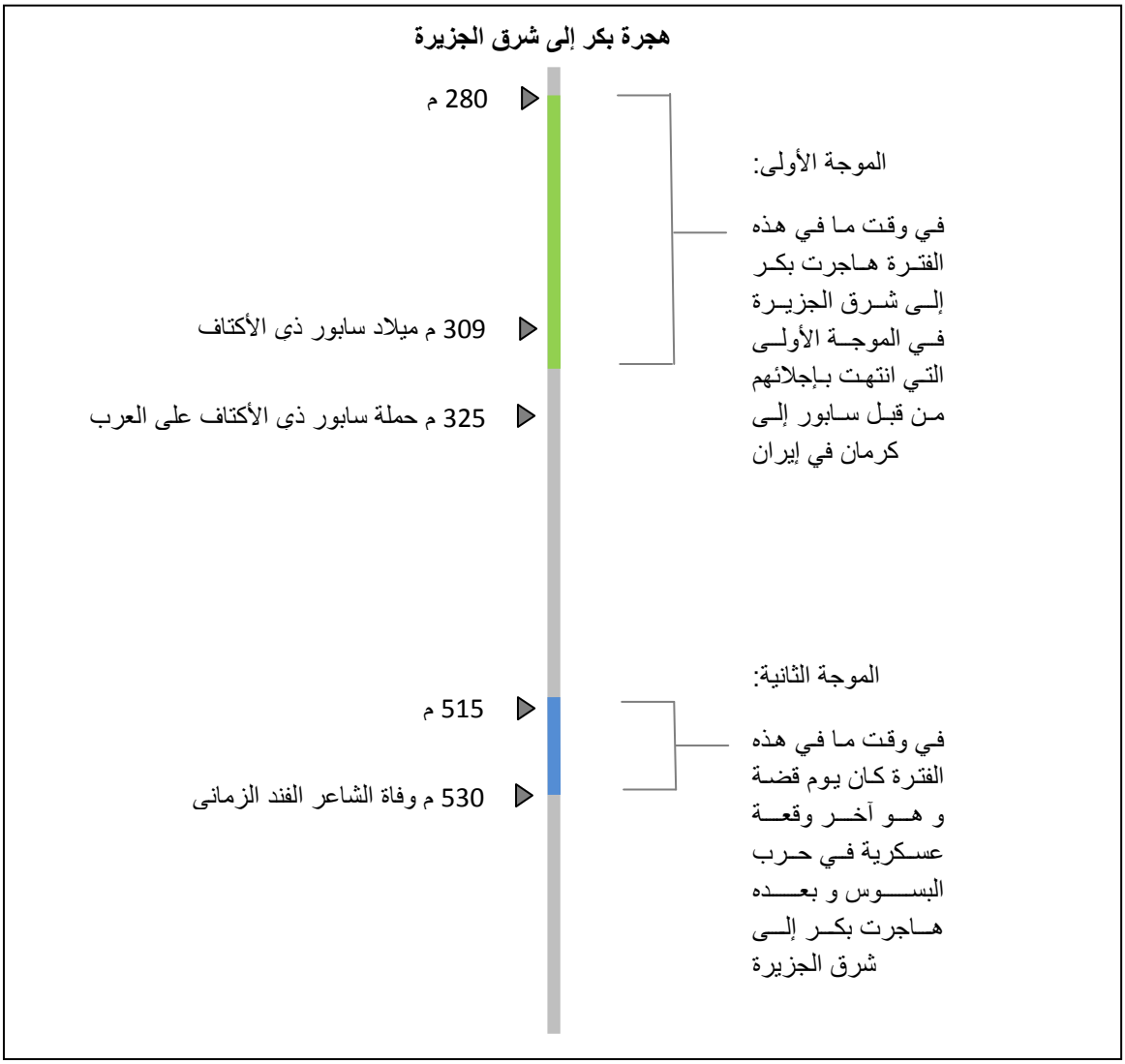

و لأن لكل قبيلة امتدادات خارج شرق الجزيرة، فإننا سنغض النظر عن تلك الإمتدادات فنحن لا يعنينا مثلا كم هو حجم قبيلة تميم في عموم الجزيرة بل يهمنا فقط حضورها في شرق الجزيرة، و على هذا الأساس فإن الإنطباع الذي يخرج به من يطالع تاريخ شرق الجزيرة في فترة ظهور الإسلام هو أن التركيبة القبلية لعرب شرق الجزيرة كانت كالتالي:

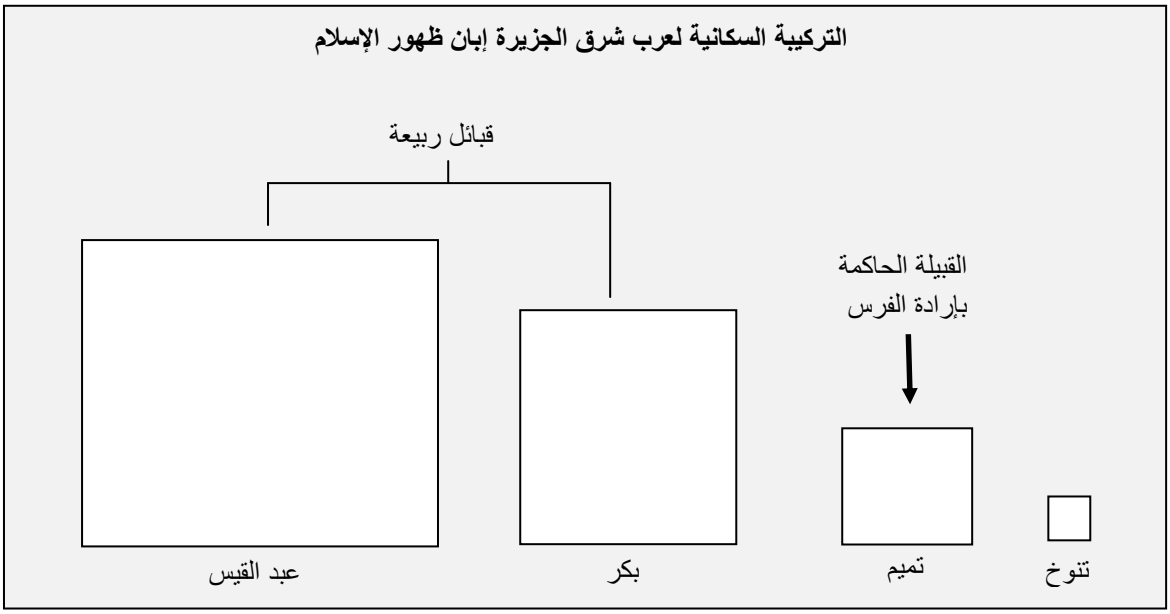

و الآن دعنا نركّب الصورة النهائية للأزمان التي نزحت فيها القبائل العربية نحو شرق الجزيرة:

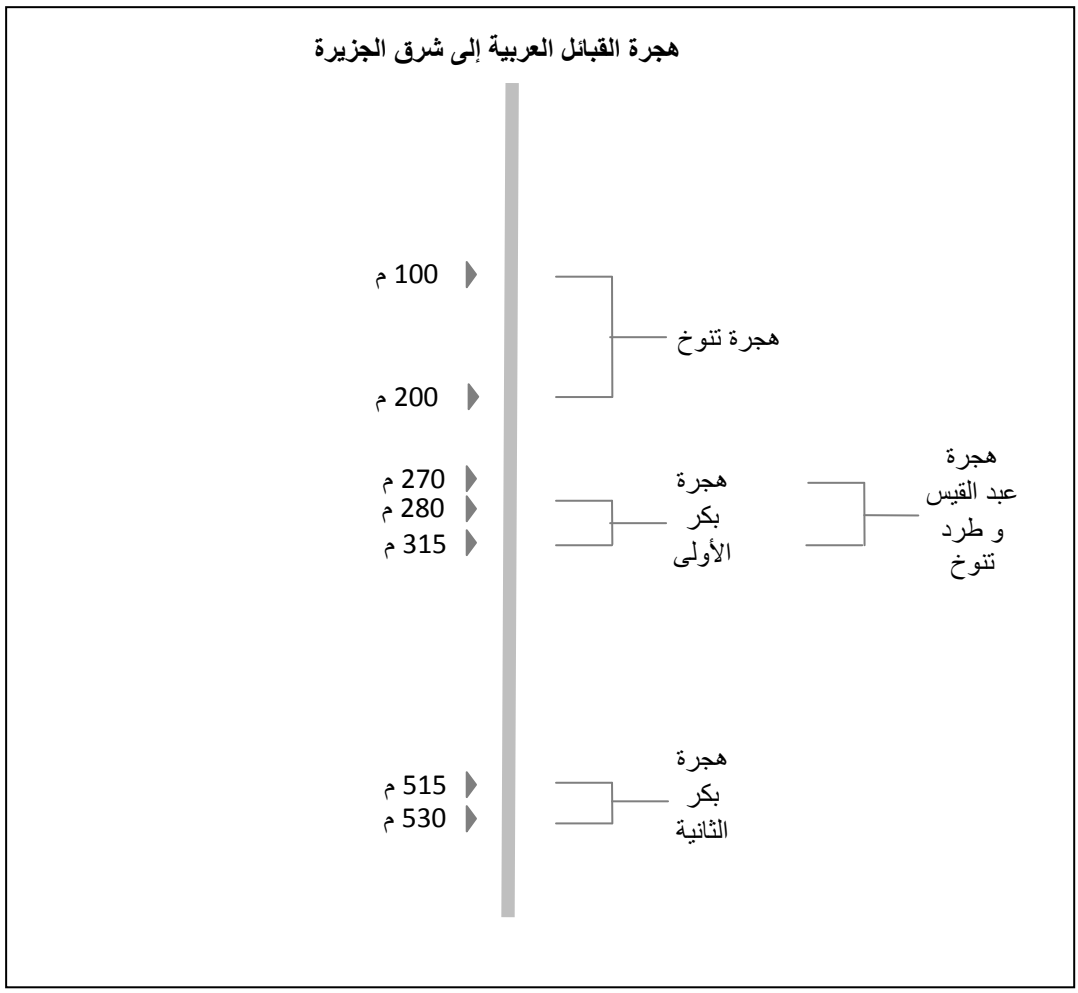

و هكذا يظهر لنا بوضوح أن القبائل العربية المعروفة، التي ينتسب إليها عربُ اليوم، بدأت في استيطان شرق الجزيرة بدءا من عام 100 م متمثلة في قبائل تنوخ، و أنه عند ظهور الإسلام كان العرب المتواجدون في شرق الجزيرة ممن استوطنوه بدءا من عام 270 م لأن تنوخ كانت قد أُخرجت قبل ذلك التاريخ. و لكن قبل هذا التاريخ كان شرق الجزيرة مأهولا بأعراق أخرى. و حتى بعد هذا التاريخ فإن هجرة الأعراق الأخرى، و خصوصا الفرس و مواليهم، إلى شرق الجزيرة لم تنقطع. و قد أشار المؤرخون العرب إلى هذه الأعراق تحت مسمى العجم، و كذلك أكدت الدراسات الآثارية أن اللغات السائدة آنذاك كانت الآرامية و الفارسية، لذا فإننا نعلم أن القبائل العربية العدنانية البدوية كانت غريبة عن المنطقة التي كانت مأهولة بالعجم ساعة نزوحهم من تهامة، أما قبائل تنوخ العربية فقد تم طردهم و إخراجهم من المعادلة. علاوة على ذلك فإن كثيرا من عرب شرق الجزيرة غادروه نحو الشام و العراق بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية.

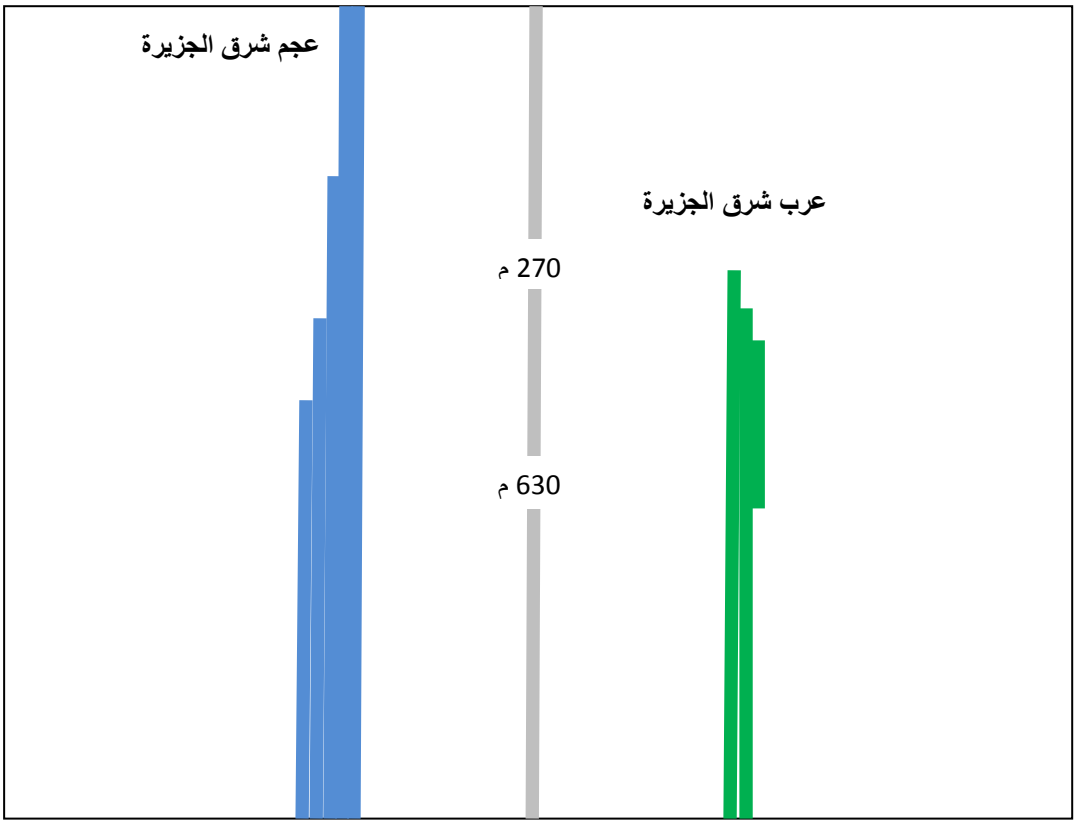

و يبدو أن العلاقة بين القبائل العدنانية و العجم كانت متوترة، حيث كانت تلبية عبد القيس عند الطواف بصنمهم ذي اللبا، كما جاء في كتاب المحبر لابن حبيب، هي:

"لبيك اللهم لبيك، لبيك، رب فاصرفن عنا مضر، و سلمن لنا هذا السفر، إن عما فيهم لمزدجر و اكفنا اللهم أرباب هجر"

فاستعاذة عبد القيس من أرباب هجر تعني، على ما يبدو لي، أن أرباب هجر كانوا شعبا آخر تخشى عبد القيس من بطشه. و عن هذا الصنم قال الحموي في معجم البلدان "ذو اللبا صنم لعبد القيس بالمشقر سدنته منهم بنو عامر" و قال عنه ابن حبيب في المحبر "و كان ذو اللبا لعبد القيس بالمشقر". و قال الأصفهاني في الأغاني عن قبيلة إياد "وكانوا يعبدون صنماً يقال له ذو الكعبين و عبدته بكر بن وائل من بعدهم". و قال الزبيدي في تاج العروس "عَوْضُ : اسْمُ صَنَمٍ لبَكْرِ بْن وَائلٍ، وبه فَسَّرَ ابنُ الكَلْبيّ قَوْلَ الأَعْشَى : حَلَفْتُ بمَائِرَاتٍ حَوْلَ عَوْضٍ ... وأَنْصَابٍ تُرِكْنَ لَدَى السُّعَيْرِ"، كما قال "المحَرّق كمُحَدِّث : صَنَم لبَكْرِ بنِ وائل كانَ بسَلْمانَ"، و قال أيضا "أَوالٌ : صَنَمٌ لِبَكْرٍ وتَغْلِبَ ابْنَي وائلٍ"، و أضاف إليها صنما اسمه "جلسد" الذي قال عنه شاعر عبد القيس المثقّب العبدي:

فبات يجتابُ شقارى كما بيقرَ من يمشي إلى الجلسدِ

و قد ذكر المثقب العبدي أيضا حجارة كانوا يطوفون بها يسمونها "الأنصاب":

يطيفُ بنصبهم حجنٌ صغارٌ فقد كادت حواجبهم تشيبُ

فمظاهر الوثنية كانت مشهدا مألوفا في عموم الجزيرة آنذاك، إلا أن المسيحية كانت قد بدأت تتسرب إلى شرق الجزيرة قبل بزوغ الإسلام. و يصعب أن نحدد مدى انتشار المسيحية بين القبائل العربية في ذلك الوقت، لأن المؤرخين العرب استعملوا عبارات تمويهية. و تفاوتت ألفاظ و تعابير المؤرخين عند وصفهم لتسرب المسيحية إلى قبائل ربيعة، فقال عن ذلك ابن حزم في جمهرة أنساب العرب "يقال أن اياد كلّها وربيعة كلّها وبكرا وتغلب والنمر وعبد القيس كلّهم نصارى". و قال الجاحظ في كتاب الحيوان "هذا مع ما كان في العرب من النصارى الذين يخالفون دين مشركي العرب كل الخلاف، كتغلب و شيبان و عبد القيس". غير أنني لاحظت أن أكثر ما يُستشهد به في هذا الخصوص هو قول ابن قتيبة في كتاب المعارف، و لكن من أجل فهم أفضل لما عناه ابن قتيبة سأضع العبارتين المتتاليتين كما ذكرهما ابن قتيبة ثم سنقارن بينهما:

العبارة الأولى: كانت النصرانية في ربيعة و غسان و بعض قضاعة.

العبارة الثانية: كانت اليهودية في حمير و بني كنانة و بني الحرث بن كعب و كندة.

فإذا عبّرنا الجملة الأولى بمعنى الشمول لكي نفهم منها أن جميع أفراد ربيعة كانوا نصارى، وجب علينا أن نعبّر الجملة الثانية بنفس المعيار لنفهم أن جميع أفراد كنانة كانوا يهودا. و إلى كنانة تنتسب قريش، فهل كان كل أفراد قريش يهودا؟ طبعا لا. لذلك فإننا يجب أن نفهم العبارة الأولى على أنها تعني تسرب النصرانية إلى قبيلة ربيعة بحيث يعتنقها بعض أفرادها كما تسربت اليهودية إلى قبيلة كنانة بحيث يعتنقها بعض أفرادها. زد على ذلك أن تعبير "ربيعة" يشمل عبد القيس و بكر معا، و لم يكن من بكر شخصيات مسيحية معروفة، و لم ترفع بكر عندما ارتدت بعد وفاة محمد شعارات مسيحية. فلو فهمنا أن العبارة الأولى لابن قتيبة تعني الشمول لوجب أن نقول أن بكر أيضا كانت مسيحية قبل الإسلام، و هذا ليس له ما يدعمه. و كما ذكرنا أعلاه فإن الوثنية كانت ما تزال ظاهرة في أشعار المثقب العبدي، شاعر عبد القيس، الذي عاصر الجارود، و هذا يعني أن المسيحية كانت دينا جديدا على عبد القيس.

و أيضا مما يُستشهد به للتدليل على اعتناق عبد القيس للمسيحية هو قصة الوفد الذي ترأسه الجارود إلى محمد، حيث ورد فيه أن أفراد هذا الوفد كانوا نصارى، و إليك نصه من تاريخ الإسلام للذهبي:

"وَفَد في عبد القيس سنة عشرٍ من الهجرة ، و كانوا نصارى ، فأسلم الجارود ، و فرح النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بإسلامه و أكرمه"

و لكننا لا نجد مثل هذا التعليق في الأخبار التي سردت اللقاءات السابقة لجماعات من عبد القيس مع محمد، كوفد عمرو بن عبد القيس على محمد في مكة قبيل هجرة محمد إلى المدينة كما رواه ابن حجر في الإصابة:

"قالوا: كان الأشجّ أشجّ عبد القيس، و اسمه المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النّعمان العصري صديقا لراهب ينزل بدارين ، فكان يلقاه في كل عام، فلقيه عاما بالزّارة ، فأخبر الأشجّ أنّ نبيا يخرج بمكّة، يأكل الهديّة و لا يأكل الصّدقة، بين كتفيه علامة يظهر على الأديان، ثم مات الرّاهب، فبعث الأشجّ ابن أخت له من بني عامر بن عصر، يقال له عمرو بن عبد القيس، و هو على بنته أمامة بنت الأشجّ، و بعث معه تمرا ليبيعه، و ملاحف، و ضمّ إليه دليلا يقال له الأريقط، فأتى مكّة عام الهجرة، فذكر القصّة في لقيه النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم، و صحة العلامات، و إسلامه، و أنه علمه الحمد و «اقرأ باسم ربّك» ، و قال له: ادع خالك إلى الإسلام. فرجع و أقام دليله بمكّة، فدخل عمرو منزله، فسلم، فخرجت امرأته إلى أبيها، فقالت له: إن زوجي صبأ، فانتهرها و جاء الأشجّ فأخبره الخبر، فأسلم الأشج، و كتم الإسلام حينا"

و كاللقاء الذي تلا معركة أحد مباشرة، عندما أخذت وفادة تجارية من عبد القيس رشوة من أبي سفيان و مقابل هذه الرشوة نقلوا أخبارا مغلوطة إلى محمد، ذكره الطبري، و أيضا ورد نصه في معارف ابن قتيبة كما يلي:

"فانصرف القوم سراعًا خائفين من الطلب لهم، و مر بأبي سفيان نفرٌ من عبد القيس يريدون المدينة. فقال: هل مبلغو محمدًا و أصحابه ما أرسلكم به، على أن أوقر لكم أباعركم زبيبا غدًا بعطاء إن أنتم جئتموني؟ قالوا: نعم. قال: حيثما لقيتم محمدًا و أصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم، و أنا آثاركم. فانطلق أبو سفيان، و قدم الركب على النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه بالحمراء، فأخبروهم الذي أمرهم أبو سفيان، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل"

أو كما في وفد الأشج في نهاية عام 8 هـ، حيث يرد في تكملة القصة المذكورة أعلاه عن وفد عمرو بن القيس:

"فأسلم الأشج، و كتم الإسلام حينا، ثم خرج في ستة عشر رجلا من أهل هجر، منهم من بني عصر: عمرو بن المرحوم بن عمرو. و شهاب بن عبد الله بن عصر، و حارثة بن جابر، و همام بن ربيعة، و خزيمة بن عبد عمرو. و منهم من بني صباح: عقبة ابن حوزة، و مطر العنبري، أخو عقبة لأمه. و من بني عثمان: منقذ بن حبّان، و هو ابن أخت الأشجّ أيضا، و قد مسح النبيّ صلّى الله عليه وسلم وجهه. و من بني محارب: مزيدة بن مالك، و عبيدة بن همام. و من بني عابس بن عوف: الحارث بن جندب. و من بني مرة: صحار بن العبّاس، و عامر بن الحارث، فقدموا المدينة، فخرج النّبي صلّى الله عليه وسلم في الليلة التي قدموا في صبحها، فقال: «ليأتينّ ركب من قبل المشرق، ولم يكرهوا على الإسلام، لصاحبهم علامة» . فقدموا فقال: «اللّهمّ اغفر لعبد القيس»"

فرغم التفصيل في أسماء المشاركين في وفد الأشج، إلا أنه لم ترد إشارة إلى انتماء أي منهم إلى الدين المسيحي. و في خبر وفد عمرو بن عبد القيس أن الأشج كان يلتقي براهب في دارين، و لكن ذلك لا يفيدنا في تحديد هويته العقدية فأخبار العرب تعجّ بقصص عن لقاءات كهذه بين منتسبي ديانات مختلفة. أما عن تاريخ انطلاق وفد الأشج، فقد كان بعد وصول بعثة العلاء بن الحضرمي إلى شرق الجزيرة حاملا رسال محمد إلى المنذر بن ساوى. و قد انطلق العلاء من غرب الجزيرة في ذي القعدة عام 8 هـ، كما سنفصّل أدناه.

و باعتبار أن شرق الجزيرة كان واقعا تحت نفوذ الحيرة آنذاك، فمن المفيد أن نتتبع تاريخ تسلل المسيحية إلى الأسرة اللخمية الحاكمة. إن المصادر العربية القديمة هي الوحيدة التي زعمت أن الملوك اللخميين اعتنقوا المسيحية في زمن مبكر جدا. فالطبري يذكر في تاريخه أن امرئ القيس الأول (حكم 288–328 م) هو أول ملك لخمي يتنصر. غير أن ويليام موير يستبعد ذلك و يشير إلى مواقف ملوك اللخميين من المسيحية، و هي مواقف كانت تتراوح بين التشجيع الذي بدأ في 410 م إلى الإضطهاد، و استمر التبدل على الأقل حتى وفاة المنذر الثالث على الديانة الوثنية في العام 562 م (2). و يعتقد الباحثون المعاصرون، كبيتر هِليَر، أن الملك اللخمي الذي تنصّر هو النعمان الرابع (النعمان بن المنذر)، و هو

آخر الملوك اللخميين، و كانت بداية حكمه في عام 583 م و اعتنق المسيحية في عام 593 م تقريبا (5). و إذا كنا سنعتبر ولاء سكان شرق الجزيرة للنعمان بن المنذر سببا لاعتناقهم المسيحية فيجدر بنا أن ننتبه إلى أن قبيلة عبد القيس قد انشطرت عليه بين معارضة و موالاة، فكان من شعراء المعارضة يزيد بن خذاق الشني الذي قال:

نُعْمانُ إنَّكَ خائِنٌ خَدِعٌ يُخْفِي ضَمِيرُكَ غيرَ ما تُبْدِي

و قال أيضا يهجو النعمان و جابيه الجارود بن المعلى بأقسى الألفاظ:

أَقِيمُوا بَنِي النُّعْمانِ عنَّا صُدُورَكُم وإِلاَّ تُقِيمُوا كارِهِينَ الرُّؤُسَا

أَكُلُّ لَئِيمٍ مِنْكُمُ ومُعَلْهَجٍ يَعُدُّ علينا غارَةً فَخُبُوسَا

أَلاَ ابْنَ المُعَلَّى خِلْتَنَا وحسِبْتَنَا صَرَارِيَّ نُعْطِي الماكِسِينَ مُكُوسَا

فلئن اعتنق الجارودُ المسيحية عندما كان جابيا للنعمان بدافع من الولاء السياسي فإن شطرا آخر من بني عبد القيس كانوا معادين للنعمان، فعلى أي أساس يتبعون الجارود في اعتناق المسيحية؟

و يستشهد البعض بما قاله الجارود بعد ردة عبد القيس عن الإسلام لإقناعهم بالتراجع عن ردتهم، باعتبار ذلك تأكيدا على اعتناقهم للمسيحية، و القصة هي كما ذكرها الطبري في تاريخه:

"فَقَالَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ وَ ارْتَدُّوا ، وَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ فَجَمَعَهُمْ ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَهُمْ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ أَمْرٍ فَأَخْبِرُونِي بِهِ ، إِنْ عَلِمْتُمُوهُ ، وَ لا تُجِيبُونِي إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا قَالُوا : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ . قَالَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ أَنْبِيَاءٌ فِيمَا مَضَى . قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : تَعْلَمُونَهُ أَوْ تَرَوْنَهُ ؟ قَالُوا : لا ، بَلْ نَعْلَمُهُ . قَالَ : فَمَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : مَاتُوا . قَالَ : فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ كَمَا مَاتُوا ، وَ أَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ . قَالُوا : وَ نَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَ أَنَّكَ سَيِّدُنَا وَ أَفْضَلُنَا . وَ ثَبَتُوا عَلَى إِسْلامِهِمْ"

فالجارود قال لهم ما معناه "ألستم تؤمنون بوجود أنبياء قبل محمد؟ ألستم تؤمنون بأن هؤلاء الأنبياء قد ماتوا؟" فقالوا "نعم". و لكن هذه القصة لا تضيف شيئا إلى معلوماتنا. فأولا حتى وثنيي الجزيرة يؤمنون بنبوة إسماعيل و إبراهيم. و ثانيا حتى مسلمي يثرب الذين كانوا واقفين عند باب منزل محمد ساعة وفاته شككوا في موته إلى حد ما. و ثالثا حتى لو افترضنا أن ما قاله الجارود يشي بروحٍ مسيحية، فالجارود

يعبر عن حزب الموالاة للنظام المسيحي الحاكم أيام النعمان، و هو ليس الحزب الوحيد في عبد القيس كما أشرنا أعلاه.

و قد استمرت المسيحية في شرق الجزيرة بعد ظهور الإسلام بمائة عام على الأقل (6)، فإذا كان جميع العرب قد أسلموا في الثلث الأول من القرن السابع فإن ذلك يعني أن من كان يتعهد المسيحية في شرق الجزيرة هم العجم، هذا عدا عن أسماء قساوسة شرق الجزيرة التي لا نعثر في معظمها على ما يشير إلى الإنتماء العربي.

و من الملاحظ أن محمدا لم يخيّر القبائل العربية في شرق الجزيرة بين الإسلام و الجزية. و في رسالته إلى قبيلة عبد القيس، التي ذكرها ابن سعد في طبقاته، ما يوحي بأنهم وثنيون:

"مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الأَكْبَرِ بْنِ عَبْدِ الْقَيْسِ أَنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَ أَمَانِ رَسُولِهِ عَلَى مَا أَحْدَثُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْقُحَمِ وَ عَلَيْهِمُ الْوَفَاءُ بِمَا عَاهَدُوا وَ لَهُمْ أَنْ لا يُحْبَسُوا عَنْ طَرِيقِ الْمِيرَةِ وَلا يُمْنَعُوا صَوْبَ الْقَطْرِ وَ لا يُحْرَمُوا حَرِيمَ الثِّمَارِ عِنْدَ بُلُوغِهِ وَ الْعَلاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ أَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى بَرِّهَا وَ بَحْرِهَا وَ حَاضِرِهَا وَ سَرَايَاهَا وَ مَا خَرَجَ مِنْهَا وَ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ خُفَرَاؤُهُ مِنَ الضَّيْمِ وَ أَعْوَانُهُ عَلَى الظَّالِمِ وَ أَنْصَارُهُ فِي الْمَلاحِمِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَ مِيثَاقُهُ لا يُبَدِّلُوا قَوْلا وَ لا يُرِيدُوا فُرْقَةً وَ لَهُمْ عَلَى جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الشَّرِكَةُ فِي الْفَيْءِ وَ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ وَ الْقَصْدُ فِي السِّيَرَةِ ، حُكْمٌ لا تَبْدِيلَ لَهُ فِي الْفَرِقَيْنِ كِلَيْهِمَا وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ"

فما الذي أحدثته عبد القيس قبل الإسلام من الأمور العظام (القحم)؟ ألا يحُتمل أن يكون ذلك إشارة إلى ديانتهم الوثنية؟ و لماذا يعطيهم الأمان لولا أن القحم كانت مستمرة حتى ذلك الوقت؟

و هكذا نتوصل إلى أنه ما من دليل على اعتناق قبيلة عبد القيس برمتها للمسيحية، و أن المسيحية كانت ديانة مستجدة في مجتمع هذه القبيلة، و أن دوافع سياسية حركت شطر عبد القيس الذي آمن بالمسيحية.

أمابالنسبة لقبيلة تميم فقد أشار ابن قتيبة إلى ميولهم نحو المجوسية قائلا:

"و كانت المجوسية في تميم منهم زرارة بن عدس التميمي و ابنه حاجب بن زرارة، و كان تزوج ابنته ثم ندم، و منهم الأقرع بن حابس كان مجوسيا، و أبو سود جد وكيع بن حسان كان مجوسيا"

و ربما كان المنذر بن ساوى مجوسيا أيضا، إذ أن رسول محمد العلاء بن الحضرمي قال له، كما جاء في السيرة الحلبية:

"إن هذه المجوسية شر دين، ينكح فيها ما يُستحيا من نكاحه، و يأكلون ما يتكره من أكله، و تعبدون في الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة"

و ليس في ذلك غرابة فقد تولت تميم إدارة شئون الحكم بإرادة فارسية و كانت المجوسية دين الدولة الفارسية الرسمي آنذاك، و ابن قتيبة لم يذكر سوى أفراد معدودين من تميم، و لو كانت المجوسية ديانة قبيلة تميم كلها لما احتاج ابن قتيبة إلى تسمية أشخاص معينين. فالمجوسية تسربت إلى تميم كما تسربت المسيحية إلى عبد القيس و كما تسربت اليهودية إلى كنانة.

أما بالنسبة لعجم شرق الجزيرة فقد كانت المسيحية إحدى دياناتهم عند ظهور الإسلام، و ظلوا يتعهدونها حتى منتصف القرن الميلادي الثامن كما ذكرنا أعلاه.

و أيضا من ديانات عجم شرق الجزيرة عند ظهور الإسلام المجوسية و اليهودية اللتين ورد ذكرهما في رسالة المنذر بن ساوى إلى محمد، و التي جاء فيها كما في السيرة الحلبية:

"بأرضي مجوس و يهود"

فرد عليه محمد برسالة جاء فيها:

"و من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية"

و نعلم أن هؤلاء كانوا عجما لأن مؤرخي العرب ذكروا أن جميع عرب شرق الجزيرة أسلموا، و لا يوجد ما ينفي ذلك، أي لا يوجد ذكر لأي قبيلة عربية مقيمة في شرق الجزيرة قبلت دفع الجزية. و لا بد أن المجوسية في شرق الجزيرة كانت آنذاك ديانة منظمة و لها مركز هو بيت النار و سدنة من الجالية الفارسية يقومون على شئونه، فقد جاء في رسالة لمحمد إلى مجوس هجر كما يذكر البلاذري في فتوح البلدان:

"فَإِنَّكُمْ إِذَا أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ ، وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَ نَصَحْتُمْ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ، وَ آتَيْتُمْ عُشْرَ النَّخْلِ وَ نِصْفَ عُشْرِ الْحَبِّ ، وَ لَمْ تُمَجِّسُوا أَوْلادَكُمْ ، فَلَكُمْ مَا أَسْلَمْتُمْ عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّ بَيْتَ النَّارِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ، و إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمُ الْجِزْيَةُ"

و قد ذكر الطبري في تاريخه أن كسرى الفرس أبرويز "أمر فبنيت بيوت النيران و أقام فيها اثني عشر ألف هربذ للزمزمة".

و إذا لحظنا ما ذكرناه سابقا من أن حصن المشقر كان مأهولا بالعجم و في نفس الوقت كان محلّا لصنم عبد القيس ذي اللبا علِمنا أن بعض العجم، في زمن وصول الإسلام إلى شرق الجزيرة، كانوا يعبدون الأوثان.

و عند وصول الإسلام إلى شرق الجزيرة فضّل أغلب العجم الإحتفاظ بدياناتهم المجوسية و اليهودية و المسيحية، كما أشرنا أعلاه. أما من كان على الوثنية فلا بد أنه أسلم و التحق بالعرب لأن محمدا لم يقبل الجزية من الوثنيين. غير أنه بينما استمرت المسيحية بين العجم قرنا بعد الإسلام، حسب شواهد تاريخية و آثارية (6)، فإن الديانتين الأخريين، المجوسية و اليهودية، قد اختفتا تماما بعد حروب الردة، و يبدو أن ذلك قد حدث لسببين، الأول هو تضامنهم مع المرتدين، كما سنذكر أدناه، و الثاني هو سهولة اضطهادهم في ظل غياب حكومة أجنبية تساندهم، فاليهود ليس لهم دولة و المجوس فقدوا دولتهم عندما سقطت الإمبراطورية الفارسية، أما المسيحيون فلربما احتفظوا ببعض المدد بفضل الإمبراطورية الرومانية رغم الفروق المذهبية.

إنضمام شرق الجزيرة إلى الدولة الإسلامية:

عندما تشظّت مملكة الحيرة في عهد حكومة إياس، لم يكن سكان شرق الجزيرة هم الوحيدين الذين يبحثون عن تحالفات جديدة. و لربما احتفظ اللخميون ببعض الأمل في العودة إلى سدة الحكم فتبددت آمالهم عندما تم تعيين زاديه حاكما على الحيرة التي انكمش نفوذها عن شرق الجزيرة و عمان. و قد وفد الداريون من آل لخم يتزعمهم تميم الداري على محمد في مكة قبل الهجرة و حصلوا منه على إقطاعيات لعدد من المدن في فلسطين، ثم جدد لهم الكتاب عندما وفدوا عليه بعد معركة تبوك. و هي قصة لها مصادر عديدة جدا نذكر منها ما جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر:

"عنْ أَبِي هِنْدٍ الدَّارِيِّ ، قَالَ : قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بِمَكَّةَ ، وَ نَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ : تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ ، وَ نُعَيْمٌ أَخُوهُ ، وَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، وَ أَبُو هِنْدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَ أَخُوهُ الطَّيِّبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، " فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ " ، وَ فَاكِهُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَأَسْلَمْنَا ، وَ سَأَلْنَاهُ أَنْ يُعْطِيَنَا أَرضًا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَأَعْطَانَا وَكَتَبَ لَنَا فِي جِلْدٍ أَدَمٍ كِتَابًا فِيهِ شَهَادَةُ الْعَبَّاسِ ، وَ جَهْمِ بْنِ قَيْسٍ ، وَ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ ، قَالَ أَبُو هِنْدٍ : فَلَمَّا هَاجَر رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، قَدِمْنَا عَلَيْهِ فَسَأَلْنَا أَنْ يُجَدِّدَ لَنَا كِتَابًا ، فَكَتَبَ لَنَا كِتَابًا نُسْخَتُهُ : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا مَا أَنْطَى مُحَمَّدٌ

رَسُولُ اللَّهِ تَمِيم الدَّارِيَّ وَ أَصْحَابَهُ ، وَ فِيهِ : وَشَهِدَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، وَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ"

و أفراد هذا الوفد يُعرفون في التراث الإسلامي بالداريين، و هم من لخميي الشام. لذلك لا نجد أي مفاجأة في إيفاد الأشج من عبد القيس ابن اخته عمرو بن عبد القيس إلى محمد في مكة قبيل الهجرة، كما ذكرنا أعلاه. فعندما نتأمل السياق الإقتصادي و السياسي نرى في عبد القيس قبيلة هي أولا منهكة إقتصاديا بسبب العدوى التي أصابت إبلهم و هي ثانيا ممزقة الولاء، فالنعمان بن المنذر الذي انشطروا عليه بين معارضة و موالاة قد قتله كسرى فلم يصل بهم ذلك إلى شاطئ الإستقرار بل انتهى إلى تشظّي مملكة الحيرة إلى مرزبانيات صغيرة منفصلة عن بعضها البعض، و كانت عبد القيس تتبع مرزبانية هجر التي يتقلدها سيبخت، و مدينة هجر تتبع شرق الجزيرة الذي يحكمه رجلان هما المنذر بن ساوى و الهلال. و بينما كانت عبد القيس تمثل كبرى قبائل شرق الجزيرة كان المنذر بن ساوى ينتمى إلى قبيلة تميم ذات التواجد المحدود في ذلك المحيط، كما أوضحنا أعلاه، و من الطبيعي أن تتحامل الأكثرية، أي عبد القيس، على حكومة الأقلية، أي تميم. و مثلما كان اللخميون يبحثون عن تحالفات جديدة تعوضهم عن فقدان السلطة على مملكة الحيرة، كانت عبد القيس تتطلع إلى ولاء سياسي جديد تستعيد به توازنها. و يظهر الطابع النفعي لوفود عبد القيس في اللقاء الثاني حيث قبلت جماعة من عبد القيس أخذ رشوة من أبي سفيان مقابل نقل معلومات مضلِّلة إلى محمد بعد معركة أحد مباشرة. أما الأشج الذي أسلم قبل هجرة محمد إلى المدينة فقد ظل في موطنه و كتم إسلامه و لم يظهره إلا في نهاية عام 8 هـ، كما في الرواية المذكورة أعلاه، فإسلامه كان طيلة ثمان سنوات بأدنى تكلفة ممكنة. و لم يكن وفد الأشج عام 8 هـ بريئا بل كانت النوايا عسكرية، حيث طلب الأشج من محمد تزويدهم بالدعم العسكري لإرغام باقي سكان شرق الجزيرة بقوة السلاح على اعتناق الإسلام، كما حكى العيني في شرح صحيح البخاري:

"ثم أن النبي قال لهم تبايعوني على أنفسكم و قومكم فقال القوم نعم فقال الأشج يا رسول الله إنك لن تزايل الرجل عن شيء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا و ترسل معنا من يدعوهم فمن اتبع كان منا و من أبى قاتلناه"

و ما دامت النوايا خلف هذا اللقاء عسكرية فلا بأس أن يحاول الأشج الحصول من محمد على رخصة لشرب النبيذ، كما جاء في مسند أحمد، حيث طلب الأشج أولا من محمد أن يرخص لهم في شرب النبيذ فنهاهم محمد عن شرب النبيذ ذي التركيز العالي و رخص لهم شرب النبيذ ذي التركيز المنخفض، ثم طلب الأشج من محمد أن يرخص لهم شرب كمية متوسطة و مثّل الكمية بيديه في الهواء، فرفض محمد و قال له لو رخصت لكم شرب كمية متوسطة، و مثّل الكمية بيديه في الهواء، فإنكم ستشربون كمية كبيرة، و مثل

الكمية بيديه في الهواء، ثم حذرهم من خطر السُكْر. و هي قصة لها مصادر عديدة أوردُها كما في مسند أحمد لأنها أوضح معنى من غيرها:

"فقال الأشج يا رسول الله إن أرضنا أرض ثقيلة وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة هيجت ألواننا و عظمت بطوننا فقال رسول الله ﷺ لا تشربوا في الدباء و الحنتم و النقير و ليشرب أحدكم في سقاء يلاث على فيه فقال له الأشج بأبي و أمي يا رسول الله رخص لنا في مثل هذه و أومأ بكفيه فقال يا أشج إني إن رخصت لك في مثل هذه (و قال بكفيه هكذا) شربته في مثل هذه (و فرج يديه وبسطها يعني أعظم منها) حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر ساقه بالسيف و كان في الوفد رجل من بني عضل يقال له الحارث قد هزرت ساقه في شراب لهم في بيت تمثله من الشعر في امرأة منهم فقام بعض أهل ذلك البيت فهزر ساقه بالسيف فقال الحارث لما سمعتها من رسول الله ﷺ جعلت أسدل ثوبي فأغطي الضربة بساقي و قد أبداها الله"

أما الجارود فلم يعتنق الإسلام إلا بعد أن تقاطرت الوفود على محمد في السنة التاسعة للهجرة أو ما بعدها. و لو استعرضنا سيرة الجارود بموضوعية لوجدنا فيه إنسانا نفعيا. فقد كان قبل الإسلام يجبي المكوس من قومه لصالح مملكة الحيرة حتى هجاه شاعر من عبد القيس بأشد الألفاظ قساوة، كما ذكرنا أعلاه، و المكوس في هذا السياق هي الضرائب التي تؤخذ دون وجه حق. و لم تكن ظروف إسلامه بمنأى عن الضغوط، فمن جهة كان الأشج و حزبه من عبد القيس يتأهبون للدخول في مواجهات عسكرية مع من يرفض اعتناق الإسلام، و من جهة ثانية كانت قبائل عربية تفد على محمد معلنة الولاء السياسي و أخرى تسقط عسكريا و تدخل في نطاق نفوذه، و من جهة ثالثة كانت رسائل محمد إلى وسط و شرق الجزيرة لا تخلو من تهديدات عسكرية كما سنوضح أدناه. و مثلما طلب الأشج رخصة من محمد لشرب النبيذ، طلب الجارود من محمد رخصة لسرقة إبل المسلمين، فحذره محمد أشد التحذير، كما جاء في مسند أحمد:

"الجارود قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في بعض أسفاره و في الظهر قلة، إذ تذاكر القوم الظهر، فقلت: يا رسول الله قد علمت ما يكفينا من الظهر، فقال "و ما يكفينا؟" قلت: ذود نأتي عليهن في جرف فنستمتع بظهورهم، قال "لا، ضالة المسلم حرق النار فلا تقربنها، ضالة المسلم حرق النار فلا تقربنها""

و لمعرفة المزيد عن شخصية الجارود نذكر قصة أوردها ابن عبد البر في الإستيعاب. كان الجارود يمشي يوما بصحبة عمر بن الخطاب في المدينة، فمرا بامرأة فذكّرتْ عمرَ بالله و وعظته، فنهرها الجارود، فأنّبه عمر على ذلك. و نص القصة هو:

"خرج عمر من المسجد و معه الجارود العبدي ، فإذا بامرأة برزت عَلَى ظهر الطريق ، فسلم عليها عمر ، فردت عَلَيْهِ السلام ، و قالت : هيهات يَا عمر ، عهدتك و أنت تسمى عميرًا فِي سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك ، فلم تذهب الأيام

حَتَّى سميتَ عمر ، ثم لم تذهب الأيام حَتَّى سميتَ أمير المؤمنين ، فاتق اللَّه فِي الرعية ، و اعلم أنه من خاف الوعيد قرب عَلَيْهِ البعيد. و من خاف الموت خشي عَلَيْهِ الفوت. فَقَالَ الجارود : قد أكثرت أيتها المرأة عَلَى أمير المؤمنين. فَقَالَ عمر : دعها ، أما تعرفها ! فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بْن الصامت التي سمع اللَّه قولها من فوق سبع سماوات ، فعمر و اللَّه أحق أن يسمع لَهَا"

و قد تزوّج أبو هريرة من أخت الجارود، كما ورد في طيّات حديث من سنن البيهقي، و يبدو أن ذلك حدث أثناء تولّي أبي هريرة إمارة شرق الجزيرة في عهد عمر. و يصعبُ ألا نرى في هذا الزواج مصاهرة سياسية، فهو يجمع أخت سيّد عبد القيس مع أبي هريرة الذي لم تُعرف له آنذاك مأثرة في شخصه و انحصرت ميزته في توليه الإمارة، حتى أنه في ذلك الوقت لم يكن قد بدأ برواية الأحاديث عن محمد بعد لكي نزعم مثلا أن شهرة أبي هريرة كراوية قد سوّغت هذا الزواج. و ذكر الطبري في تاريخ الرسل و الملوك أن مصعب بن الزبير قال يخاطب الحكم بن المنذر بن الجارود العبدي:

"يا بن الخبيث، أتدري من أنت و من الجارود! إنما كان الجارود علجا بجزيرة ابن كاوان فارسيا، فقطع إلى ساحل البحر، فانتمى إلى عبد القيس، و لا و اللَّه ما أعرف حيا أكثر اشتمالا على سوءة منهم ثم أنكح أخته المكعبر الفارسي فلم يصب شرفا قط أعظم منه"

و مع هذا التأمل الدقيق في سيرة الجارود نعجز عن العثور على فضائل في شخصيته تبرر لنا الإدعاء بأن إسلامه كان بدوافع عقدية بعيدة عن المطامع من جهة و الضغوطات من جهة أخرى. و لا يبدو الجارود سوى انتهازي فارسي انتسب إلى قبيلة عبد القيس فحقق الوجاهة عبر مصاهرة المرزبان الفارسي المكعبر و العمل كجابي ضرائب جائرة لصالح الملك النعمان. و هكذا يتضح لنا أن مقولة محمد عن وفد عبد القيس بأنهم دخلوا الإسلام غير مكرهين تنطبق فقط على الأشج و المقربين منه، فالأشج اعتنق الإسلام مدفوعا بمطامعه العسكرية كما ذكرنا أعلاه، أما الجارود فلم يعتنق الإسلام إلا متأخرا في عام 9 هـ أو كما قال الذهبي في عام 10 هـ، و يمكن التوفيق بين هذين التاريخين بالكشف عن حقيقة أن الجارود قد ارتد عن الإسلام ثم اعتنقه مجددا كما سنوضح أدناه في سياق حديثنا عن تقلب سكان شرق الجزيرة بين الإسلام و الردة. هذا ما كان من شأن دخول قبيلة عبد القيس في الإسلام.

أما قبيلة بكر فكانت النفعية في دخولها الإسلام جلية. فقد كانت بكر تقيم في أرض يقال لها "الشيطان" (مثنى شيط)، فارتحلوا عنها فحلت فيها قبيلة تميم. ثم إن الأرض الجديدة التي استقرت فيها بكر أصيبت بالوباء، ثم اختاروا أرضا ثانية فأجدبت، فأرادوا الرجوع إلى أرضهم الأصلية في الشيطين، و لكنها كانت قد أصبحت مقرا لتميم. فقررت قبيلة بكر أن تغير على تميم أولا ثم بعد ذلك تعتنق الإسلام فيسقط عنها

القصاص لأن الإسلام يجب ما قبله، و يكون لهم، بانتمائهم إلى الدولة الوليدة في الحجاز، سند يحميهم من الإنتقام. فأسرعوا بقافلتهم نحو أرض الشيطين حتى قطعوا المسافة في نصف المدة و فاجأوا تميم فأغاروا عليها و هزموها. ثم ذهبوا إلى محمد و أعلنوا إسلامهم فأقرهم محمد على ما بأيديهم. و هذه قصتها كما في الكامل لابن الأثير:

"كان الشيطان لبكر بن وائل ، فلما ظهر الإسلام في نجد سارت بكر قبل السواد ، و بقي مقايس بن عمرو العائذي بن عائذة من قريش حليف بني شيبان بالشيطين . فلما أقامت بكر في السواد لحقهم الوباء و الطاعون الذي كان أيام كسرى شيرويه ، فعادوا هاربين فنزلوا لعلع ، وهي مجدبة ، و قد أخصب الشيطان ، فسارت تميم فنزلوا بها . وبلغت أخبار الشيطين إلى بكر فاجتمعوا وقالوا : نغير على تميم ، فإن في دين ابن عبد المطلب ، يعنون النبي ، أن من قتل نفسا قتل بها ، فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها ، فارتحلوا من لعلع بالذراري و الأموال و رئيسهم بشر بن مسعود بن قيس بن خالد ، فأتوا الشيطين في أربع ليال ، و الذي بينهما مسيرة ثماني ليال ، فسبقوا كل خبر حتى صبحوهم و هم لا يشعرون فقاتلوهم قتالا شديدا وصبرت تميم ثم انهزمت ، (...) ثم إن النبي – ﷺ – كتب إلى بكر بن وائل على ما بأيديهم"

و على أساس هذه الرواية نعلم أن إسلام بكر كان قبل إسلام تميم. فإذا كانت تميم قد أسلمت في ذي القعدة من عام 8 هـ كما سنوضح أدناه فيكون إسلام بكر سابقا على هذا التاريخ. و ما مرت ثلاث سنوات إلا و ارتدت بكر عن الإسلام بعد موت محمد. يقول الواقدي في كتاب الردة عما فعلته بكر بعد وفاة محمد:

"ثُمَّ خَرَجَ نَفَرٌ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ وَ أَهْلِ الشَّرَفِ فِيهِمْ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى كِسْرَى مَلِكِ الْفُرْسِ ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَ حَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الْمُلُوكِ. فَقَالَ كِسْرَى : مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ؟ فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ مَضَى ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِي كَانَتْ قُرَيْشٌ وَ سَائِرُ مُضَرَ يَعْتَزُّونَ بِهِ ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ قَدْ قَامَ بَعْدَهُ خَلِيفَةٌ لَهُ ضَعِيفُ الْبَدَنِ ، ضَعِيفُ الرَّأْيِ ، وَ قَدِ انْصَرَفَ عَامِلُهُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، وَ بِلادُ الْبَحْرَيْنِ الْيَوْمَ ضَائِعَةٌ لَيْسَ بِهَا أَحَدٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى دِينِ الإِسْلامِ ، إِلا شِرْذِمَةٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ ، وَ لَيْسَ هُمْ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ ، وَ نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ خَيْلا وَ رَجْلا ، وَلَوْ بَعَثْتَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ رَجُلا يَأْخُذُهَا ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُمَانِعُهُ عَلَيْهَا"

فمحمد أصبح في نظرهم "ذلك الرجل" و مسلمي عبد القيس "شرذمة" و المطلوب الآن أن يمدهم كسرى بالمساعدة العسكرية ليفنوا مسلمي شرق الجزيرة. و بمعونة الفرس حاصر رجالُ بكر جيرانهم من عبد القيس في حصن جواثا، لأن عبد القيس رجعت إلى الإسلام، و كادت بكرُ أن تفتك بها لولا وصول المدد الذي أرسله الخليفة أبو بكر. و مهما اجتهدنا فإننا لا نستطيع أن نبصر في الإسلام العابر لقبيلة بكر دوافع عقدية. أما محاولة الربط بين إسلام بكر و مقولة محمد الشهيرة عن انتصارهم في يوم ذي قار، و صيغتها كما مثلا في طبقات ابن خياط "الْيَوْمُ أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَفَتْ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الْعَجَمِ وَ بِي نُصِرُوا"، فهي غير مقنعة. فأولا إن الرأي الغالب هو أن معركة ذي قار وقعت قبل تواصل محمد مع قبائل الحجاج في

مكة بكثير، فهي بعيدة كل البعد عن مسألة دخول بكر في الإسلام. و ثانيا على فرض وقوع يوم ذي قار قبيل هجرة محمد إلى المدينة فإننا نقرأ في المعجم الكبير للطبراني تفصيلا يرد فيه أن بكر قالت لأبي بكر عندما دعاهم لاعتناق الإسلام بتكليف من محمد "إِذَا فَرَغْنَا مِمَّا بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ عُدْنَا فَنَظَرْنَا فِيمَا تَقُولُ"، أي لم يعتنقوا الإسلام بل قرروا الإنتظار حتى الفراغ من حروبهم مع الفرس ثم يفكرون في مسألة اعتناق الإسلام، و في ذلك إشارة واضحة إلى استقبالهم دعوة محمد استقبالا سياسيا بعيدا عن العقيدة، و إلا فإن من يعتنق دينا لأسباب عقدية يراعي أكثر ما يراعي الإلتحاق بهذا الدين قبل موته و ليس بعد فراغه من المعركة. فهم أرادوا التمهل للقيام بحسابات الربح و الخسارة.

و بالمثل لم يكن طريق اعتناق المنذر بن ساوى التميمي للإسلام خاليا من التعرجات على أرض المصالح. و أول ما نعلمه بهذا الخصوص هو أن محمدا أوفد العلاء بن الحضرمي ليدعو المنذر بن ساوى إلى الإسلام. و لأننا نريد تحديد تاريخ هذا الوفد فإننا سنستعين بقرينتين، أولهما أن أبا هريرة كان مصاحبا للعلاء و ثانيهما أن محمدا بعث العلاء عندما كان في الجعرانة. ففيما يتعلق بأبي هريرة ذكر الواقدي أن أبا هريرة كان مرافقا للعلاء بن الحضرمي. و في فتح الباري أن أبا هريرة كان مؤذنا في البحرين، و كان الإمام آنذاك هو العلاء بن الحضرمي. و روى الطبراني في الأوسط و أيضا في الكبير عن أبي هريرة أنه رافق العلاء عندما بعثه محمد إلى البحرين. و مثله روى الذهبي في سير أعلام النبلاء. و أبو هريرة لم يهاجر من اليمن إلى المدينة إلا في بداية السنة السابعة للهجرة ضمن موكب قاده الصحابي الطفيل الدوسي من اليمن إلى المدينة. و ضم الموكب سبعين أو ثمانين عائلة كما جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد. و لمنع الإلتباس أنوّه هنا إلى أننا لا نتحدث عن تاريخ إسلام أبي هريرة، فذلك ليس شأننا، بل نتحدث عن تاريخ وصوله إلى المدينة. و الحديث المذكور في طبقات ابن سعد يؤيده ما جاء في تاريخ خليفة بن خياط، و حديث أبي داود في الصلاة برقم (1407)، و الإستيعاب لابن عبد البر (374/1)، و غريب الحديث للخطابي (485/2)، و معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (135/14)، و معرفة السنن و الآثار للبيهقي (195/3)، و أسد الغابة لابن الأثير (258/3)، و «شرح مسلم» و«المجموع» و«الروضة» و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، و مجموع الفتاوى لابن تيمية (366/20). و من خلال هذه القرينة نستبعد أن تكون بعثة العلاء إلى المنذر بن ساوى قد حدثت قبل السنة السابعة للهجرة. أما بخصوص القرينة الثانية، فقد بعث محمد العلاء من قرية اسمها الجعرانة كان قد وزّع فيها غنائم حنين، و إليك النص كما في طبقات ابن سعد:

"وَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْجِعْرَانَةِ ، الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ وَ هُوَ بِالْبَحْرَيْنِ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلامِ وَ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِسْلامِهِ وَ تَصْدِيقِهِ وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ هَجَرَ فَمِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ الإِسْلامَ وَ أَعْجَبَهُ وَ دَخَلَ فِيهِ ، وَ مِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ وَ بِأَرْضِي مَجُوسٌ وَ يَهُودُ فَأَحْدِثْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَمْرَكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : " إِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحُ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ وَ مَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ""

أما ابن قيم الجوزية في زاد المعاد، و مثله ورد في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، جاء:

"و بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين قبل منصرفه من "الجعرانة " وقيل : قبل الفتح"

و ذكر ابن كثير في البداية و النهاية أن إرسال العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى كان في ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، و هو تاريخ مكوث محمد في الجعرانة بعد معركة حنين. أما الحموي في معجم البلدان و البلاذري في فتوح البلدان فذكرا أولا أن إرسال العلاء إلى البحرين كان في سنة ثمان، ثم أضافا بأنه كان حسب رأي آخر في سنة ست، لكن أبا هريرة في السنة السادسة للهجرة كان ما يزال مقيما في اليمن ما يجعل أي تاريخ يسبق السنة السابعة للهجرة، و هو زمن وصول أبي هريرة للمدينة، مستبعدا. و توجد أيضا رواية تربط بعثة العلاء بالحديبية، و هي كما ذكرها ابن طولون في إعلام السائلين:

"كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ مَعَ الْحَضْرَمِيِّ كِتَابًا بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ"

غير أننا نستبعد هذا الحديث لنفس السبب أعلاه، إذ أن صلح الحديبية كان في السنة السادسة للهجرة قبل وصول أبي هريرة إلى المدينة.

أما القرينة الثانية، و هي الجعرانة، فتجعل تاريخ ذي القعدة من عام 8 هـ هو الأرجح. و لكننا نتفاجأ بوجود دلائل تشير إلى أن المنذر بن ساوى قد ارتد عن الإسلام بعد هذا التاريخ، و هي دلائل لا يتطرق إليها الباحثون عادة. فقد ذكر ابن طولون في إعلام السائلين رسالة أخرى بعثها محمد إلى المنذر بن ساوى في عام 9 هـ، و إليك ما قاله:

"رَوَى الواقدي فِي آخر كِتَاب الردة، فَقَالَ: حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَهْمٍ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ بِالْبَحْرِينِ لِلَيَالِي بَقِيْنَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعٍ، مُنْصَرَفَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ تَبُوكَ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا فِيهِ: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى , سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى الإِسْلامِ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، وَ اعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَ الْحَافِرِ ". وَخَتَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ، فَخَرَجَ الْعَلاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمُنْذِرِ وَ مَعَهُ نَفَرٌ فِيهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا» ، وَ قَالَ: «إِنْ أَجَابَكَ إِلَى مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ، فَأَقِمْ حَتَّى يأْتِيكَ أَمْرِي، وَخُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِهِمْ» ، قَالَ الْعَلاءُ: وَكَتَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا يَكُونُ مَعِي، وَ كَتَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَائِضَ الإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَ الْغَنَمِ، وَ الْحَرْثِ، وَ الذَّهَبِ، وَ الْفِضَّةِ، عَلَى وَجْهِهَا، وَ قَدِمَ الْعَلاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ عَلَيْهِ , فَقَرَأَ الْكِتَابَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مَا دَعَا إِلَيْهِ حَقٌّ، وَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَ أَكْرَمَ مَنْزِلَهُ وَ رَجَعَ الْعَلاءُ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَهُ فَسُرَّ"

فهذه القصة التي ينقلها ابن طولون عن كتاب الردة للواقدي قد حدثت في رجب من العام التاسع للهجرة، فهي متأخرة عن بعثة العلاء بن الحضرمي الأولى التي تُوّجت بإسلام المنذر بن ساوى. و يرد فيها "سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى الإِسْلامِ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ" و هذا يعني أن المنذر بن ساوى لم يكن مسلما عندما بعث محمد إليه بهذه الرسالة لأن محمدا يدعوه فيها إلى الإسلام و يحييه بالتحية التي تُوجه إلى غير المسلمين، فإن كانت الرسالة قد أرسلت فعلا في عام 9 هـ فإن ذلك يعني أن المنذر بن ساوى قد ارتد عن الإسلام. كما نلاحظ ورود تهديد مبطن هو "وَ اعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ" بينما كانت الرسائل السابقة تُفتتح بالسلام و تعبر عن الود. و يبدو أن رسالة أخرى بعثها محمد إلى عامة سكان هجر تشي بوجود تقلبات في ولاءات تلك القبائل، و نص الرسالة كما في فتوح البلدان للبلاذري:

"مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى أَهْلِ هَجَرَ ، سَلْمٌ أَنْتُمْ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللَّهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ . أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِاللَّهِ وَ بِأَنْفُسِكُمْ ، أَلا تَضِلُّوا بَعْدَ إِذْ هُدِيتُمْ ، وَلا تُغْوَوْا بَعْدَ إِذْ رَشَدْتُمْ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّهُ قَدْ أَتَانِي الَّذِي صَنَعْتُمْ وَأَنَّهُ مَنْ يُحْسِنْ مِنْكُمْ لا يُحْمَلْ عَلَيْهِ ذَنْبُ الْمُسِيءِ ، فَإِذَا جَاءَكُمْ أُمَرَائِي فَأَطِيعُوهُمْ وَ انْصُرُوهُمْ وَ أَعِينُوهُمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ مِنْكُمْ عَمَلا صَالِحًا فَلَنْ يُضَلَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدِي ، وَ أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَاءَنِي وَفْدُكُمْ فَلَمْ آتِ إِلَيْهِمْ إِلا مَا سَرَّهُمْ ، وَ إِنِّي لَوْ جَهِدْتُ حَقِّي فِيكُمْ كُلَّهُ ، أَخْرَجْتُكُمْ مِنْ هَجَرَ ، فَشَفَّعْتُ غَائِبَكُمْ وَأَفْصَلْتُ عَلَى شَاهِدِكُمْ ، فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ"

فما هو الشيء الذي صنعه أهل هجر و بلغ محمد؟ و لماذا برزت لغة الوعيد في ثنايا هذا الخطاب؟ و في رسالة أخرى إلى المنذر بن ساوى، ذكرها الزيلعي في نصب الراية، قال محمد:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً عبده، ورسوله، أما بعد: فإني أذكر الله عز وجل، فإنه من ينصح، فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي، و يتبع أمرهم، فقد أطاعني، و من نصح لهم، فقد نصح لي، و إن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، و إني

شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، و عفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، و إنك مهما تصلح، فلن نعزلك عن عملك، و من أقام على يهودية، أو مجوسية، فعليه الجزية"

فما هي تلك الذنوب التي عفا عنها محمد و وجّه المنذر بن ساوى بعدم معاقبة مرتكبيها بقوله "و عفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم"؟ إننا لو جمعنا مضمون و حيثيات الرسائل الثلاث السابقة فليس لنا إلا أن نرجح ردة المنذر بن ساوى عن الإسلام ثم رجوعه إلى الإسلام بسرعة. و رغم أن هذه الصورة تصطدم بحساسية المسلمين الناجمة عن الصورة المتخيّلة عن دخول شرق الجزيرة إلى الإسلام سلما، إلا أنه ليس فيها ما يعارض السلم، فقصارى القول هو أنها تثبت أن الإسلام انتشر في شرق الجزيرة بالإكراه تحت التهديد و الوعيد، باستثناء الأشج و المقربين منه الذين كان الطمع دافعهم الأساسي. و أبرز تهديدات محمد إلى شرق الجزيرة كانت تلك الموجهة إلى مجوس هجر، فقد ذكر الزيلعي في نصب الراية ما يلي:

"كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر ، أما بعد : من شهد منكم أن لا إله إلا الله ، و أن محمدا عبده و رسوله ، و استقبل قبلتنا ، و أكل ذبيحتنا فله مثل ما لنا ، و عليه مثل ما علينا ، و من أبى فعليه الجزية على كل رأس دينار ، على الذكر والأنثى ، و من أبى فليأذن بحرب من الله ورسوله"

و ذكر الرسالةَ ابن زنجويه في كتاب الأموال مضيفا في خاتمتها عبارة "و عليكم ألا تمجسوا بيت النار". فالتهديد الموجه إلى مجوس هجر، و هي الديانة التي تميل إليها قبيلة تميم و يعتنقها بعض رموزها، لم يكن تلميحا بل تصريحا بقوله "و من أبى فليأذن بحرب من الله و رسوله". و إذا نزلنا قليلا إلى عمان وجدنا رسائل محمد أكثر قسوة في التعبير عن التهديد، و إليك نص إحدى رسائله إلى عمان نقلا عن مجمع الزوائد للحافظ:

"أما بعد: فأقروا بشهادة أن لا إله إلا الله و أني رسول الله و أدوا الزكاة و خطوا المساجد كذا وكذا و إلا غزوتكم"

فهو يهددهم بالغزو، و الغزو يتبعه سفك الدماء و السلب و السبي. و هناك رسالة أخرى إلى عمان مذكورة في السيرة الحلبية لم تخلُ من التهديد المبطن:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر و عبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا و يحقّ القول على الكافرين، و إنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل: أي تنزل بساحتكما، و تظهر نبوتي على ملككما"

و بتهديد أخف حبّر محمد رسالته إلى هوذة الحنفي أحد حكام اليمامة:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، و اعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك" (...) "فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه الصلاة و السلام. فأخبره بأن هوذة قد مات"

و إذا تحرّكنا صوب حائل، فقد غزا المسلمون قبيلة طيء في عام 9 هـ ففرّ زعيمُهم عَدي بن حاتم الطائي إلى الشام و سبا المسلمون نساء طيء ثم أطلقوا سراح سفانة بنت حاتم الطائي لشرف نسبها فذهبت إلى أخيها عدي في الشام و أقنعته بالوفود على محمد فأتى إليه و أسلم، كما ذكر القصة ابن الأثير في الكامل. و يضيف ابن عبد البر في كتاب الدرر في اختصار المغازي و السير أن محمدا قد قال لعدي بن حاتم الطائي عندما تردد في اعتناق الإسلام:

"لا يبقى عربي إلا دخل فيّ طوعا أو كرها فقبل عدي الإسلام وأسلم و حسن إسلامه و تبعه قومه فأسلموا و حسن إسلامهم"

فبقوله "طوعا أو كرها" لم يكن يشير إلى خيار الحرب، فالحرب ضد حائل قد اختتمت و تُوّجت بسبي نسائهم، و لكنه يضع عديَ الطائي بين خيارين: إما الإذعان أو الإعدام. و هكذا نستطيع أن نفهم الأجواء التي أحاطت بالمنذر بن ساوى عندما وصلته رسالة محمد في المرة الأولى في ذي القعدة عام 8 هـ حيث كان شرق الجزيرة ممزقا إلى مرزبانيات تقطّعت بينها خيوط الثقة، و رسائلُ محمد توزع التهديدات الصريحة و المبطنة على هذه الكيانات المتفرقة و على غيرها، و كل قائد كيان منها يخشى أن يسبقه جيرانه إلى التحالف مع محمد فيجد نفسه في ورطة رهيبة لأن تهديدات محمد ستنفّذ حينها، كما فعل عندما غزت جيوش المسلمين حائل و سبت نساءها، و قبيلة بكر اعتنقت الإسلام لمصالح سياسية و في أجواء عسكرية، و حزب الأشج من عبد القيس يطلب المؤازرة من محمد لشن حروب ترغم سكان شرق الجزيرة على الإسلام. تحت هذه الظروف العصيبة أسلم المنذر بن ساوى، و يبدو أنه ارتد بعدها في عام 9 هـ، ثم رجع إلى الإسلام.

و لا يبدو أن المنذر بن ساوى هو الوحيد من بين الشخصيات الكبيرة في شرق الجزيرة الذي ارتد عن الإسلام. فهذا الطبري يروي في تاريخه عن الجارود:

"قَدِمَ الْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مُرْتَدًّا ، فَقَالَ : " أَسْلِمْ يَا جَارُودُ " . فَقَالَ : إِنَّ لِي دِينًا . قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ دِينَكَ يَا جَارُودُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَيْسَ بِدِينٍ " . فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ : فَإِنْ أَنَا أَسْلَمْتُ فَمَا كَانَ مِنْ تَبَعَةٍ فِي الإِسْلامِ فَعَلَيْكَ . قَالَ : " نَعَمْ " . فَأَسْلَمَ وَ مَكَثَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى فَقِهَ ، فَلَمَّا أَرَادَ الْخُرُوجَ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ نَجِدُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ ظَهْرًا نَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : " مَا أَصْبَحَ عِنْدَنَا ظَهْرٌ " . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا نَجِدُ بِالطَّرِيقِ ضَوَالَّ مِنْ

هَذِهِ الضَّوَالِّ . قَالَ : " تِلْكَ حرق النَّارِ فَإِيَّاكَ وَ إِيَّاهَا " . فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ دَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَأَجَابُوهُ كُلُّهُمْ ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"

إزاء هذا النص لا نحتاج إلى عقلية بوليسية لربط خيوط مبعثرة هنا و هناك، فالطبري يقول بصريح العبارة أن الجارود كان "مرتدا" عندما زار محمدا قبيل وفاته، ثم رجع إلى الإسلام ثم رجعت عبد القيس إلى الإسلام. و هكذا نركب صورة أوضح عن شرق الجزيرة الذي تسرب إليه الإسلام أولا عبر الأشج قبيل هجرة محمد إلى المدينة، ثم دائرة أصدقاء الأشج المقربين، تلاه إسلام البكريين، ثم إسلام التميميين في ذي القعدة من عام 8 هـ و معهم عموم عبد القيس، ثم ارتد المنذر بن ساوى و معه من لا نعلم من تميم ثم رجع إلى الإسلام في النصف الثاني من عام 9 هـ ، و أيضا ارتد الجارود و معه عموم عبد القيس ثم رجع الجارود و معه عموم عبد القيس إلى الإسلام في النصف الثاني من عام 10 هـ، فنحن نعلم هذا التاريخ من خلال النص أعلاه، كما من النص الذي ذكره الذهبي و نعيد إيراده:

"وَفَد في عبد القيس سنة عشرٍ من الهجرة ، و كانوا نصارى ، فأسلم الجارود ، و فرح النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامه وأكرمه"

و يبدو أن المنذر بن ساوى و الجارود كتما أمر ردّتهما بينما يتواصلان في السرّ مع بقية كيانات شرق الجزيرة لتشكيل جبهة موحدة تصد التوسع الإسلامي غير أن أحدا ما وشى بهما و أفشل مساعيهما ثم رجعا إلى الإسلام، فأطبقت الدولة الإسلامية نفوذها الكامل على شرق الجزيرة.

شرق الجزيرة تحت الحكم الإسلامي أثناء حياة محمد:

لقد أحصيتُ ثلاث عشرة رسالة بعث بها محمد إلى شرق الجزيرة، تطرق في إحدى عشرة منها إلى مواضيع اقتصادية تتعلق بجمع أموال الجزية أو الصدقات، و منها ما ذكره ابن سعد في طبقاته:

"وَ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الْعَلاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيّ : " أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى مَنْ يَقْبِضْ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَهُ مِنَ الْجِزْيَةِ فَعَجِّلْهُ بِهَا ، وَ ابْعَثْ مَعَهَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنَ الصَّدَقَةِ وَ الْعُشُورِ وَ السَّلامُ"

فإلحاح محمد على جباية الجزية و تحصيل الزكاة من شرق الجزيرة نفهمه بشكل أفضل عندما نقرأ القصة التالية، أولا نقرأ الجزء الأول كما في صحيح البخاري:

"أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّمَ بعث أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ إلى البحرينِ يأتي بجزيتها ، و كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّمَ هو صالَحَ أهلَ البحرينِ و أمَّرَ عليهم العلاءَ بنَ الحضرميِّ ، فقَدِمَ أبو عبيدةَ بمالٍ من البحرينِ ، فسمعتِ الأنصارُ بقدومِ أبي عبيدةَ فوافتْ صلاةَ الصبحِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّمَ ، فلمَّا صلَّى بهمُ الفجرَ انصرف ، فتعرَّضوا لهُ فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّمَ حين رآهم ، و قال : أظنُّكم قد سمعتم أنَّ أبا عبيدةَ قد جاء بشيءٍ . قالوا : أجل يا رسولَ اللهِ ، قال : فأَبْشِرُوا و أَمِّلُوْا ما يسركم ، فواللهِ لا الفقرُ أخشى عليكم ، و لكن أخشى عليكم أن تُبْسَطَ عليكمُ الدنيا ، كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم ، فتَنَافسوها كما تَنَافسوها ، و تُهْلِككم كما أهلكتهم"

ثم نقرأ تكملة القصة كما وردت في حديث آخر عند البخاري:

"أتي النبي ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه في المسجد . و كان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتف إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله ، أعطني ، فإني فاديت نفسي و فاديت عقيلا ، فقال له رسول الله ﷺ : خذ . فحثا في ثوبه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : يا رسول الله ، مر بعضهم يرفعه إلي ، قال : لا . قال : فارفعه أنت علي ، قال : لا . فنثر منه ، ثم ذهب يقله ، فقال : يا رسول الله ، مر بعضهم يرفعه علي ، قال : لا . قال : فارفعه أنت علي ، قال : لا . فنثر منه ، ثم ذهب يقله فقال : يارسول الله مر بعضهم يرفعه علي قال : لا فارفعه أنت علي قال : لا فنثر منه ثم احتمله ، فألقاه على

كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا ، عجبا من حرصه ، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم"

و القصة باختصار هي أن أموال الجباية و الزكاة عندما وصلت إلى محمد من شرق الجزيرة كانت أكبر كمية من المال وصله في حياته، فنثره على أرض المسجد ليلا. و سمع الأنصار بذلك فأتوا يصلون صلاة الفجر في مسجده، و بعد الفراغ من الصلاة ظلوا يحيطون بمحمد، كأنهم خشيوا ألا ينالهم نصيب، فتبسم محمد ثم شرع يوزع المال عليهم. و أثناء ذلك جاء العباس عم محمد فسمح له محمد أن يأخذ من المال كل ما يقدر على حمله، و لنقل أن ذلك كان تقريبا 30 كيلوغراما. و هكذا تم تحويل أموال شرق الجزيرة إلى حسابات سكان يثرب، و لا تشذ الحكاية عن المألوف في تاريخ الدول القديمة حيث تصب الثروة من الأطراف إلى المركز، و قد صور لنا التراث الإسلامي كيف تنعّم سكان المركز في يثرب بعد هذه الحادثة حد التخمة، غير أننا لا نعلم كم عدد الأشخاص الذين تضوروا جوعا في الأطراف فذلك لم يكن من اهتمامات المؤرخين العرب. و لكن يمكننا أن نتخيل ذلك عندما نعلم أن محمدا قد فرض الجزية على غير المسلمين دينارا على كل بالغ من ذكر و أنثى كما في كتاب الخراج لأبي يوسف:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . من محمد رسول الله على المنذر بن ساوى . سلام الله عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فمن استقبل قبلتنا و أكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له مالنا و عليه ما علينا ، و من لم يفعله فعليه دينار من قيمة المعافري . و السلام و رحمة الله ، يغفر الله لك"

و في الرسالة الأخرى المذكورة أعلاه المنقولة عن نصب الراية للزيلعي فإن محمدا فرض الجزية دينارا على كل ذكر و أنثى و هدد من يأبى بحرب من الله و رسوله، و على نفس المنوال سارت الرسائل الأخرى حيث جعلت الجزية أمرا واجبا لمن لم يقبل الدخول في الإسلام من سكان شرق الجزيرة. و لو قلنا أن المقصود بالذكر و الأنثى هم البالغين، فعلينا أن نتذكر أن البلوغ في الإسلام يتحقق عند الرجال بالإنبات أو الحلم، و ذلك يحدث عادة بين 12–15 سنة، و عند النساء بالحيض و ذلك يحدث عادة بين 9–12 سنة. فمن أين لرب أسرة تتكون منه و زوجته و طفلين بلغا السن القانونية حسب التعريف الإسلامي لكنهما لا يتمكنان من العمل بعد بسبب الطفولة، من أين لرب هذه الأسرة أن يسدد 4 دنانير أو ما يعادل قيمتها؟ و ذكر ابن حجز في الإصابة:

"عن المنذر بن ساوي أن النبي صلى الله عليه و سلم كتب إليه أن افرض على كل رجل ليس له أرض أربعة دراهم و عباءة"

و من لا يملك أرضا في ذلك الزمن، حيث كان تملك الأراضي أسهل من الآن بكثير، كيف له أن يدفع أربعة دراهم و عباءة؟ البعض يزعم أن شرق الجزيرة كان غنيا آنذاك، و عندما تطالع أدلته تجد أنه يستشهد بالمال الكثير الذي وصل من شرق الجزيرة إلى يثرب في عصر محمد، غير أن ذلك يحتمل أحد أمرين: إما أن سكان شرق الجزيرة كانوا أغنياء فعلا أو أنهم تعرضوا إلى الإضطهاد تماما كما كان يفعل بهم الجارود عندما كان يجبي المكوس لصالح سكان الحيرة، غير أن الفاعل هذه المرة هو العلاء بن الحضرمي و المستفيد هم سكان يثرب. و لو تذكرنا رواية الطبري المذكورة أعلاه عن سبب غزو سكان شرق الجزيرة لساحل غرب الخليج في دولة فارس بسبب شظف العيش و قلة الموارد فإننا لا نرجح أن سكان شرق الجزيرة كانوا أغنياء، و إلا لاكتفت القبائل العربية آنذاك بغزو الواحات و الموانئ في شرق الجزيرة. و قد سُميت الأحساء، أهم واحة في شرق الجزيرة، بهذا الإسم لاعتماد سكانها في الري على الحسي و هو حفرة في الأرض الرطبة المحمولة على حوض صخري، حيث يتجمع الماء في الحسي متسربا ببطء من الطين الجانبي، و ليس ذلك بالمصدر الغزير للماء، و هو لا يتحقق إلا في أرض متدنية مما يعني الإحتياج إلى طاقة كبيرة لرفع الماء حتى يصل إلى الحقول الزراعية، و في ذلك استهلاك مفرط للمجهود البشري مما يقلل الجدوى الإقتصادية. و لو كانت الينابيع في شرق الجزيرة تغطي الإحتياجات الزراعية لما اعتمد السكان على الحسي حتى صار اسمها لمواطنهم. و مياه الحسي راكدة تتوطن فيها الأوبئة و تنفّر السياح و تدك الإقتصاد بموجات من الإمراض المعدية، و عن ذلك قال عمر بن الخطاب "عَجِبْتُ لِرَاكِبِ الْبَحْرِ وَ عَجِبْتُ لِتَاجِرِ هَجَرٍ"، كما ورد في كتاب الجامع لمعمر بن راشد في باب الوباء و الطاعون. و لا أعلم سببا وجيها لترجيح الإحتمال الأول، في حين يوجد سببان إضافيان يرجحان الإحتمال الثاني، أي أن سكان شرق الجزيرة قد تعرضوا للإضطهاد الإقتصادي لدفع هذه المبالغ الكبيرة. فأولا هناك حكاية الجارود الذي لم يجد راحلة يركبها عندما أراد العودة من المدينة إلى شرق الجزيرة، و هو سيد عبد القيس، حتى أنه فكر أن يسرق إبل المسلمين في طريقه، فإذا كان سيد عبد القيس عاجزا عن توفير ثمن راحلة فكيف يكون عموم الناس في شرق الجزيرة؟ و ثانيا فقد ظل المنذر بن ساوى حاكما على شرق الجزيرة أثناء حياة محمد، غير أن الشئون المالية قد أوكلت إلى العلاء بن الحضرمي. و يذكر ابن سعد في طبقاته أن وفدا من شرق الجزيرة شكا العلاء بن الحضرمي إلى محمد فعزله و ولى مكانه أبان بن سعيد:

"أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بَعَثَ الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْبَحْرَيْنِ ، ثُمَّ عَزَلَهُ عَنِ الْبَحْرَيْنِ ، وَ بَعَثَ أَبَانَ بْنَ سَعْدٍ عَامِلا عَلَيْهَا " ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ : وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَدْ كَتَبَ إِلَى الْعَلاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ أَنْ يَقْدَمَ

عَلَيْهِ بِعِشْرِينَ رَجُلا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ بِعِشْرِينَ رَجُلا ، رَأْسُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَوْفٍ الأَشَجُّ ، وَ اسْتَخْلَفَ الْعَلاءُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ الْمُنْذِرَ بْنَ سَاوَى ، فَشَكَا الْوَفْدُ الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ ، فَعَزَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ وَلَّى أَبَانَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَ قَالَ لَهُ : اسْتَوْصِ بِعَبْدِ الْقَيْسِ خَيْرًا ، وَ أَكْرِمْ سَرَاتَهُمْ"

و لو عدنا إلى حديث البخاري أعلاه لوجدناه يحدد الشخص الذي أرسل أموال شرق الجزيرة إلى محمد بأنه العلاء بن الحضرمي. و لو بحثنا عن الأدوار التي لعبها العلاء بن الحضرمي في الوقت القصير بين توليته على شرق الجزيرة و عزله من قبل محمد لما وجدنا له سوى دور واحد هو القيام على الجباية و الزكاة. فلماذا يشتكيه وفد شرق الجزيرة إن لم يكن بسبب الحيف الذي لحق بهم في جمع الأموال التي أُرسلت إلى يثرب و نُثرت على أرض المسجد و وُزعت على سكانها في اليوم التالي؟ و ماذا تعني عبارة محمد لأبان ابن سعيد "اسْتَوْصِ بِعَبْدِ الْقَيْسِ خَيْرًا ، وَ أَكْرِمْ سَرَاتَهُمْ"؟ أليس في ذلك تمييز لهم عن باقي سكان شرق الجزيرة؟ ثم إن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فالحموي يذكر في معجم البلدان أن سكان شرق الجزيرة أخرجوا أبان بن سعيد بعد وفاة محمد و طلبوا من أبي بكر أن يرجع إليهم العلاء:

"فلما توفي رسول الله، ﷺ، أُخرج أبان من البحرين فأتى المدينة، فسأل أهل البحرين أبا بكر أن يردّ العلاء عليهم ففعل، فيقال: إن العلاء لم يزل واليا عليهم حتى توفي سنة 20، فولّى عمر مكانه أبا هريرة الدوسي"

فإذا كان سكان شرق الجزيرة قد اشتكوا العلاء بن الحضرمي إلى محمد بسبب ظلم أنزله عليهم، فعلام يخرجون أبان بن سعيد و يطالبون بإعادة العلاء، إن لم يكن أبان بن سعيد أشد ظلما؟ إن ذلك يعطينا صورة قاتمة عن استبدال أمير ظالم بآخر أشد ظلما لإخراس الأفواه في أطراف الدولة الإسلامية كي لا يقدموا الشكاوى مرة ثانية. و لو صح ذلك فإنه يتسق مع احتمال أن تكون تلك الأموال التي أرسلت من شرق الجزيرة إلى يثرب، و التي لم يصل إلى محمد مثل كميتها في حياته، قد جُمعت بطرق ظالمة فأنعشت جيب العباس عم محمد و جيوب الأنصار و وفرت لهم الرفاهية على حساب غيرهم، و لو كانوا لا يأخذون إلا مقدار حاجتهم لما حمل العباس في ثوبه 30 كيلوغراما من الفضة لا نعلم كم خالطها من الذهب.

شرق الجزيرة غداة وفاة محمد:

مر شرق سكان شرق الجزيرة بعد موت محمد بثلاث مراحل:

1- الردة الشاملة باستثناء الجارود:

قلنا أن الجارود أسلم ثم ارتد ثم أسلم. و بعد ذلك قضى وقتا في يثرب ليتفقه في الدين الإسلامي. بعد ذلك عاد إلى شرق الجزيرة ليفقه قومه لكنهم بعد وفاة محمد ارتدوا جميعا. و عن ذلك يقول الطبري في تاريخه:

"و كان من حديث البحرين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و المنذر بْن ساوى اشتكيا في شهر واحد ، ثم مات المنذر بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بقليل و ارتد بعده أهل البحرين ، فأما عبد القيس ففاءت ، و أما بكر فتمت على ردتها ، و كان الذي ثنى عبد القيس : " الجارود " حتى فاءوا"

فالجارود جمع عبد القيس و تمكن من إقناعها بالعدول عن ردتها، فدخل رجالها في الإسلام مرة ثانية. غير أن البعض عندما يصف تلك الأحداث يحاول التشبث بنصوص إجمالية تصف عودة عبد القيس إلى الإسلام بأنه "ثبات" أو "تمسك" فيزعم أن عبد القيس لم ترتد عن الإسلام، رغم أن المطالعة الشاملة للنصوص ذي الصلة تُفهمنا أن الثبات و التمسك يعني رجوعهم إلى الإسلام بعد إقناع الجارود لهم. و هذا يعني أن عبد القيس أسلمت ثم ارتدت ثم أسلمت ثم ارتدت ثم أسلمت. و لا يوجد خطأ مطبعي في الجملة السابقة، فعبد القيس أسلمت في عام 8 هـ ثم ارتدت في عام 9 هـ ثم أسلمت في عام 10 هـ ثم ارتدت في عام 11 هـ ثم أسلمت و ثبتت على إسلامها. و عن ردة عبد القيس يضيف الطبري في تاريخه تفصيلا للحديث السابق:

"فَلَمْ يَلْبَثْ إلا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ وَ ارْتَدُّوا ، وَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ فَجَمَعَهُمْ ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَهُمْ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ أَمْرٍ فَأَخْبِرُونِي بِهِ ، إِنْ عَلِمْتُمُوهُ ، وَ لا تُجِيبُونِي إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا قَالُوا : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ . قَالَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ أَنْبِيَاءٌ فِيمَا مَضَى . قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : تَعْلَمُونَهُ أَوْ تَرَوْنَهُ ؟ قَالُوا : لا ، بَلْ نَعْلَمُهُ . قَالَ : فَمَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : مَاتُوا . قَالَ : فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مَاتَ كَمَا مَاتُوا ، وَ أَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ . قَالُوا : وَ نَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ، وَ أَنَّكَ سَيِّدُنَا وَ أَفْضَلُنَا . وَ ثَبَتُوا عَلَى إِسْلامِهِمْ"

فالنص صريح و فيه "ارتدوا". و عن ذلك يقول ابن الأثير في الكامل:

"لما قدم الجارود بن المعلى العبدي على رسول الله – ﷺ – و تفقه رده إلى قومه عبد القيس ، فكان فيهم . فلما مات النبي – ﷺ – كان المنذر بن ساوى العبدي مريضا ، فمات بعد النبي – ﷺ – بقليل . فلما مات المنذر بن ساوى ارتد بعده أهل البحرين ، فأما بكر فتمت على ردتها ، و أما عبد القيس فإنهم جمعهم الجارود ، و كان بلغه أنهم قالوا : لو كان محمد نبيا لم يمت . فلما اجتمعوا إليه قال لهم : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا : نعم . قال : فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال : فإن محمدا – ﷺ – قد مات كما ماتوا ، و أنا أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله . فأسلموا و ثبتوا على إسلامهم"

فعبارة "فأسلموا" تعني بوضوح أنهم ارتدوا ثم أقنعهم الجارود بالرجوع إلى الإسلام. و إن المحاورة التي قادها الجارود لا يمكن تأويلها سوى بالقول أنه كان يحاول إقناعهم بالرجوع إلى الإسلام. و هكذا انتقل شرق الجزيرة إلى المرحلة الثانية.

2- الردة الشاملة باستثناء عبد القيس:

بعد رجوع عبد القيس إلى الإسلام لجأت بكر إلى كسرى و طلبوا منه أن يحيي دولة اللخميين و ينصب عليها المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور. و تناسى الطرفان عداوتهم في معركة ذي قار و داسوا على أحقاد الماضي من أجل مصالح الحاضر. و من يظن أن بكر قد تأثرت بدعاء محمد لهم بالإنتصار على الفرس يوم ذي قار عليه أن يراجع نفسه، إذ أن بكر ما إن مات محمد حتى وافت كسرى و ارتمت في أحضانه و اتحدت معه ضد المسلمين. و وافق كسرى على مقترحهم و أمدهم بمعونات عكسرية بشرية كبيرة، و عن ذلك يقول الواقدي في كتاب الردة:

"وَ تَوَسَّطَتْ بَنُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ أَرْضَ الْبَحْرَيْنِ ، وَ اجْتَمَعَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ إِلَى رَئِيسٍ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ يُقَالُ لَهُ : الْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلَّى الْعَبْدِيُّ فِي أَرْبَعَةِ أَلْفٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ وَأَحْلافِهِمْ وَ عَبِيدِهِمْ وَ مَوَالِيهِمْ ، قَالَ : وَ دَنَتْ مِنْهُمْ بَنُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فِي تِسْعَةِ أَلْفٍ مِنَ الْفُرْسِ ، وَ ثَلاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْعَرَبِ"

و يضيف ابن الأثير في الكامل أن أصحاب الديانات الأخرى في شرق الجزيرة اتحدوا مع المرتدين:

"خرج الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة في بكر بن وائل ، فاجتمع إليه من غير المرتدين ممن لم يزل مشركا ، حتى نزل القطيف وهجر ، واستغووا الخط ومن بها من الزط والسابجة ، وبعث بعثا إلى دارين ، وبعث إلى جواثا فحصر المسلمين"

و هؤلاء الذين وصفهم ابن الأثير بأنهم "من غير المرتدين ممن لم يزل مشركا" ليسوا وثنيين، لأن محمدا لم يقبل الجزية من الوثنيين، فكل وثنيي شرق الجزيرة دخلوا الإسلام أثناء حياة محمد ثم ارتدوا. و نستنتج من ذلك أن الذين اتحدوا مع المرتدين هم مجوس أو يهود أو مسيحيين.

و تحصنت عبد القيس في حصن جواثا و استغاثت بالخليفة أبي بكر، فأرسل إليهم جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمي تمكن من هزيمة بكر و حلفائها. و إذا كان القارئ لم يقرأ القصة من قبل فهو يتصور الآن أن عبد القيس فتكت ببكر و سبت نساءها، إلا أن المفاجأة هي أن عبد القيس تصالحت بسهولة مع بكر و توحدت معها في جيش واحد توجه شمالا لغزو جزيرة دارين فأفنوا جميع رجالها و غنموا كل ما فيها و سبوا جميع نسائها، و هي قصة يسردها ابن أعثم في كتاب الفتوح كالتالي:

"و فتح أولئك القوم المحاصرون باب الحصن و خرجوا من ورائهم فاقتتل القوم قتالا شديدا في جوف الليل، فقتل من المسلمين نفر قليل و قتل من الكفار بشر كثيرا، و أضاء الصبح وانهزم الكفار إلى موضع يقال له الردم ، و احتوى المسلمون على ما قدروا عليه من غنائمهم. قال: و اجتمعت عبد القيس إلى العلاء بن الحضرمي من جميع نواحي البحرين حتى صار في نيف من ستة آلاف من أصحابه الذين قدموا عليه و ممن انحاز إليهم، فأقبل عليهم العلاء بن الحضرمي فقال: يا معشر عبد القيس! اعلموا أنكم في جهاد هؤلاء كجهاد من جاهد بين يدي رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و ليس بين هؤلاء و أولئك فرق، و اعلموا أن القتيل منكم في الحياة و الرزق عند الله، و للحي منكم الغنم و السرور، و قد ذلّت لكم بنو بكر بن وائل الرقاب بقدومي عليكم فأبشروا بالنصر على أعدائكم و لتصدق نياتكم في الجهاد. قال: فقال المنذر بن الجارود العبدي: صدقت أيها الأمير! لقد كان قدومك علينا فرجا لنا وثوابا عظيما لنا ولك في جهاد عدونا، فلو لم تأتنا لكان الله عزّ وجل ينصرنا على عدونا و لم يكن يخذلنا، لكن أيها الأمير ههنا جزيرة فيها قوم كفار أشد علينا من جميع أعدائنا و ليس لها إلا طريق واحد، فسر بنا إليهم فعسى الله عزّ و جلّ أن يمكننا منهم، فإذا فرغت منهم سر بنا إلى عدونا وعدوك من هؤلاء الفرس و غيرهم من الكفار. قال: فسار العلاء بن الحضرمي في جوف الليل و ليس لها إلا طريق واحد وعلى طريقها قوم يحرسونها فلم يشعر الحرس إلا و خيل المسلمين قد وافتهم فقتلوا عن آخرهم، و دخلت الخيل إلى الجزيرة، فما تركوا فيها ذكرا إلا قتلوه إلا من كان من صغار الذرية، واحتوى المسلمون على جميع ما كان في جزيرة دارين من النساء"

و القصة مذكورة في كتاب الردة للواقدي و التاريخ للطبري و سير أعلام النبلاء للذهبي و طبقات ابن سعد و معجم البلدان لياقوت الحموي و الكامل لابن الأثير. و ربما يستنجد القارئ بما قاله المنذر بن

الجارود العبدي "ههنا جزيرة فيها قوم كفار أشد علينا من جميع أعدائنا"، لتبرير ما حصل. و لكن من هو المنذر بن الجارود العبدي و هل يملك مصداقية؟ جاء في تاريخ اليعقوبي أن علي بن أبي طالب ولى المنذر بن الجارود على اصطخر ثم عزله و كتب إليه:

"أما بعد، فإن صلاح أبيك غرني منك، فإذا أنت لا تدع انقياداً لهواك أزرى ذلك بك. بلغني أنك تدع عملك كثيراً، و تخرج لاهيا بمنبرها، تطلب الصيد و تلعب بالكلاب، و أقسم لئن كان حقا لنثيبنك فعلك، و جاهل أهلك خير منك، فأقبل إلي حين تنظر في كتابي والسلام"

ثم حبسه، ثم تدخلت الوساطات فقال عنه:

"أما إنه نظار في عطفيه، مختال في برديه، نقال في شراكيه"

ثم أطلق سراحه. و بعدها بمدة قلب المنذر بن الجارود ولاءه و صار واليا لعبيد الله بن زياد في إحدى مدن الهند. و لا يوجد معنى لقول علي بن أبي طالب "صلاح أبيك" قاصدا بها الجارود سوى أنها مجاملة لقبيلة عبد القيس الموالية له، و إلا فأين موضع صلاح الجارود في سيرته؟ و أنوّه هنا إلى أن العقليات المشبعة بالإنحياز السياسي تُعلي من شأن الأحاديث التي تصف مكانة شخص ما، على حساب سيرة الشخص نفسه، رغم أن أحاديث المكانة تقوم بوظيفة ميداليات التكريم لا أكثر. و بعد أن عرفنا من هو المنذر بن الجارود فهل لنا أن نصدقه في أن أهل دارين كانوا أشد عليهم من جميع أعدائهم؟ أم ربما العكس، أي أن أهل دارين كانوا الأكثر وداعة و سلما و بالتالي الأقل خبرة بالحروب و بالتالي يسهل إفناؤهم و سبي نسائهم؟ عندما كان المسلمون محاصرين في حصن جواثا كان المرتدون تحت قيادة رجل اسمه الحطم، و عن ذلك يقول ابن الأثير في الكامل:

"فاجتمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين، واجتمع المسلمون إلى العلاء"

فالحقيقة هي أن أهل دارين، من بين باقي سكان شرق الجزيرة، فضّلوا أن يبقوا على الحياد، و هم الأكثر براءة من هذه الحرب. و كانت دارين آنذاك عاصمة العطور في جزيرة العرب، تصل إليها العطور عبر السفن و تباع إلى أنحاء الجزيرة، و كان العطار يُسمى عند العرب "الداري" و هو لفظ استعمله محمد في أحد أحاديثه. و كانت دارين مقرا لأبرشية مسيحية تنتمي إلى "بيت قطرايا"، و هو الإسم الذي يطلقه المسيحيون النسطوريون على إقليم يضم شرق الجزيرة و البصرة و عمان. و قد حضر أسقف دارين أول مجلس عام للنسطوريين (السينودس) في عام 410 م، كما انعقد المجلس العام للنسطوريين لعام 676 م في دارين (6). و يبدو أن اختيار دارين مقرا للمجلس العام كان محاولة لإحياء المدينة. و قصة الأشج

من عبد القيس مع راهب دارين تؤكد الوجود المسيحي على هذه الجزيرة. و كل هذه المعلومات تتضافر لتُشعرنا بأهمية مدينة دارين و سلمية سكانها و علوّ ثقافتهم، مقابل البداوة التي صالحت بين عبد القيس و بكر بسهولة رغم أن بكر كادت أن تُهلك عبد القيس، بينما كان نصيب رجال دارين المسالمين الإفناء لأن حاجزا ثقافيا يهدم جسور التواصل بينهم و بين بدو شرق الجزيرة. و بعد انتصار عبد القيس على بكر تحولت دارين إلى ملجأ للمرتدين المنهزمين، و اختيار دارين بالذات لا بد أنه كان بسبب حيادها فظنها الفارون مكانا آمنا. غير أن جيوش المسلمين باغتتهم و لم تفرق بين مواطني دارين و المرتدين اللاجئين و أفنت الرجال جميعا.

3- الإسلام الشامل و اختفاء المجوس و اليهود:

إستكمل العلاء بن الحضرمي حروب الردة في شرق الجزيرة و أخضع جميع سكانها لنفوذ الدولة الإسلامية. و قد ورد أعلاه أن مشركي الجزيرة، الذين يمكن أن يكونوا مجوسا أو يهودا أو مسيحيين، قد اشتركوا في الحرب ضد المرتدين. و على الأرجح فإنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها تمت معاملة المجوس و اليهود دون تمييز بينهم و بين المرتدين فأُجبروا على اعتناق الإسلام. أو أنهم تعرضوا إلى مضايقات شديدة دفعتهم للذوبان في المجتمع الإسلامي دون إرادتهم. و إذا رفضنا هذين الإحتمالين فإننا نواجه لغزا عصيا، إذ أين ذهب مجوس و يهود شرق الجزيرة بعد حروب الردة؟ لماذا لا يوجد لهم ذكر؟ و أنوّه هنا إلى عدم الخلط بين يهود ذلك العصر و اليهود العراقيين الذين استقدمهم العثمانيون للعمل في شرق الجزيرة في القرن التاسع عشر، و هم الذين نزحوا إلى مملكة البحرين بعد ضم شرق الجزيرة إلى الدولة السعودية. أما المسيحيون فظلوا يكافحون للحفاظ على هويتهم لكنهم تلاشوا في القرن التاسع الميلادي (6).

الخلاصة:

لا تبدو الصورة مشرقة كما يُروَّج لها، لا من ناحية التحركات التي صدرت عن سكان شرق الجزيرة و لا من ناحية الأهداف التي غذت السيل العقائدي في طريقه إلى المنطقة. و إن القراءة الموضوعية للظروف الدقيقة التي أحاطت بعملية انضمام المنطقة إلى الدولة الإسلامية ترسم لنا تحزبات عسكرية كانت تُخضع العقيدة الوافدة لحسابات الربح و الخسارة الماديتين. غير أن المسلم المعاصر الذي تلقّى عقائده عبر الوراثة يُسقط أحاسيسه الداخلية على شخصيات العصر الإسلامي الأول، فينمذج صورهم أولا ثم يسعى بعد ذلك لانتقاء النصوص التي تنسجم مع تلك الصور، ويُغفل كل ما شأنه رسم الحقيقة. فلم يكن العرب المركِّب الأكبر لسكان شرق الجزيرة، و لم يكونوا الأكثر تحضرا أو الأعلى ثقافة، و لم يختلفوا عن الشعوب التي امتهنت الغزو وسيلة للتكسب، و لم تكن تطلعاتهم مدفوعة بتصورات أخروية. إن ما يُذاع في هذا المجال على منابر الصوت الواحد بهدف دغدغة مشاعر السامعين هو عملية تخدير تولّد النشوة

لا عبر الإنجاز الآني بل عبر خلق أوهام عن ماضٍ أسطوري زاهٍ يقوم بوظيفة الهوية و يشبع غريزة الفخر. و ليس الإشباع بالوهم هو وحده ما يطفئ الرغبة في تحقيق إنجاز حقيقي، بل إن الإنتقائية ذاتها في تقديم النصوص، و ما يفضي إليه ذلك من صورة تفارق الواقع، يشل القدرات الذهنية و يتحول إلى عبء ثقيل على المرء أن يتخلص منه أولا قبل أن يتمكن من التحرك نحو المستقبل.

المراجع الأجنبية:

-1

Toral-Niehoff, Isabel. Al-Ḥīra: Eine arabische Kulturmetropole im spätantiken Kontex. BRILL, 2013. Print. p 45.

-2

Muir, William. The life of Mahomet. 1858.Oxford University. Print. Chapter III.

-3

J. R. Smart. Tradition and Modernity in Arabic Language and Literature. p 305

-4 https://www.princeton.edu/~achaney/tmve/wiki100k/docs/Shapur_II.html

-5

Peter Hellyer. Nestorian Christianity in the Pre-Islamic UAE and Southeastern Arabia. Journal of Social Affairs, volume 18, number 72, winter 2011, p. 90-6

R.A. Carter. Christianity in the Gulf during the first centuries of Islam. Arab. arch. epig. 2008: 19: 71-108